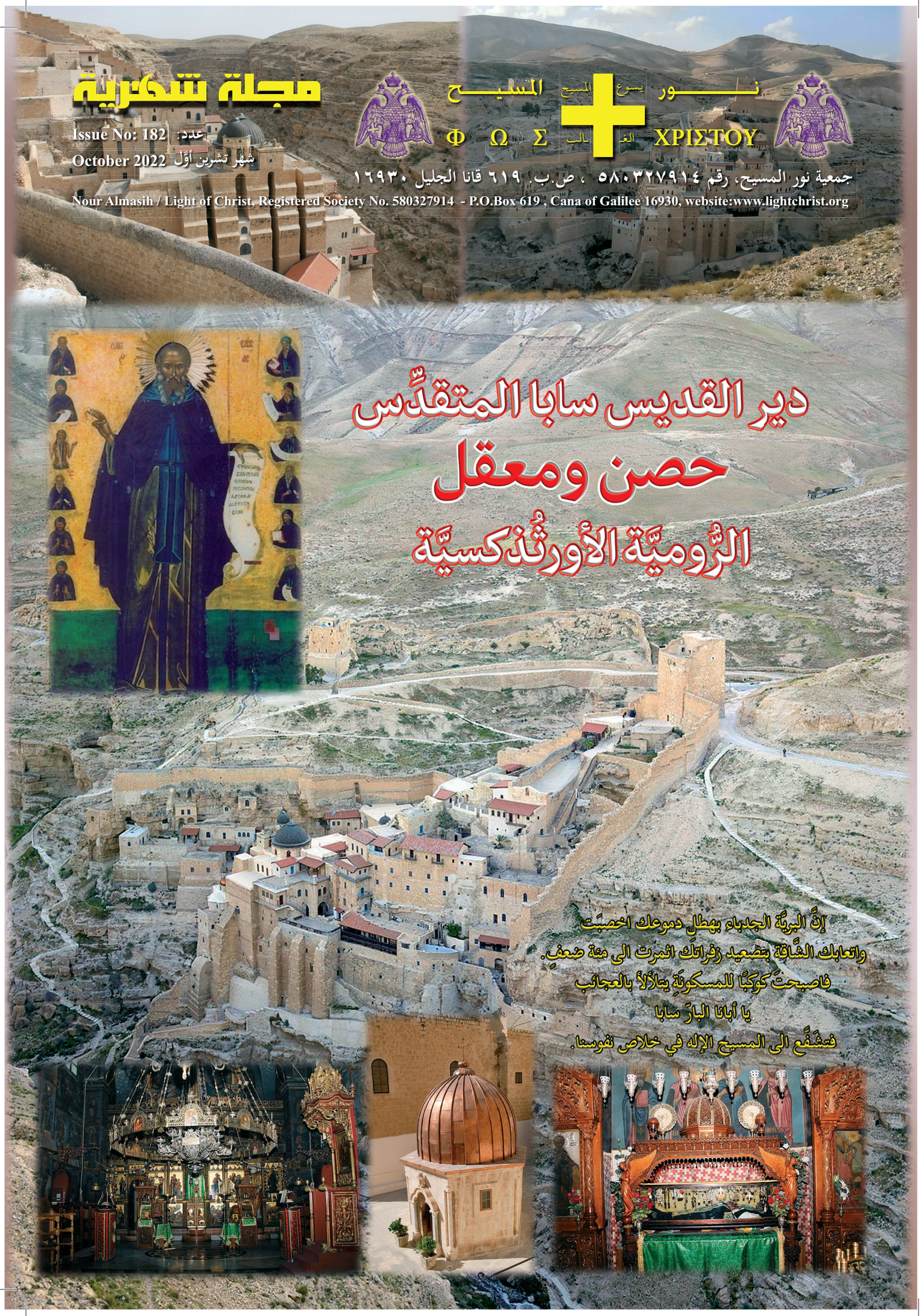

مجلة شهرية

Issue No: 182 عدد:

October 2022 شهر تشرين أوّل

نـــــور المسيـــح

ΦΩΣ ΧΡΙΣΤΟΥ

جمعية نور المسيح، رقم ٥٨٠٣٢٧٩١٤ ، ص.ب. ٦١٩ قانا الجليل ١٦٩٣٠

Nour Almasih / Light of Christ, Registered Society No. 580327914 - P.O.Box 619 , Cana of Galilee 16930, website:www.lightchrist.org

دير القديس سابا المتقدِّس

حصن ومعقل

الرُّوميَّة الأورثُذكسيَّة

إنَّ البريَّة الجدباء بهطلِ دموعك اخصبَت

واتعابك الشَّاقة بتصعيد زفراتك اثمرت الى مئة ضعفٍ.

فاصبحتَ كوكبًا للمسكونَةِ يتلألأ بالعجائب

يا أبانا البارّ سابا

فتشَفَّع الى المسيح الإله في خلاص نفوسنا.

كلمة صاحب الغبطة بطريرك المدينة المقدّسة أورشليم

كيريوس كيريوس ثيوفيلوس الثالث

بمناسبة اعادة رفات القديس سابا المتقدس ٢٠١٩/١٢/١٨

إحتفلت الكنيسة الأُرثوذكسِيَّة والبطريركيَّة الأورشليميَّة في الأراضي المقدسة يوم الأربعاء الموافق ١٨ كانون الأول (٥ كانون أول شرقي) ٢٠١٩ ؛ **بعيد القديس سابا المتوشح بالله** ، وأقيمت الصلاة في لاڤرا دير القديس سابا الذي أسَّسه القديس سابا في القرن الخامس ميلادي مع تلاميذه الرهبان.

دير القديس سابا المتقدس في صحراء يهوذا يُعتبر من أهم المقدَّسات في الأرض المقدسة وفي التَّاريخ الكنسيّ، بسبب دوره في وضع أُسسِ ٱلعبادة المستقيمة الرَّأي، وتنظيم الحياة الرَّهبانية وطقوس الكنيسة، وأيضًا لوجود عددٍ من القدِّيسين واللَّاهوتيِّين والشُّهداء، الذين تنسَّكُوا في الدَّير، واعتادوا على الحياةِ الرهبانيَّة القاسية. أيضًا لَعِبَ هذا الدير دورًا حاسمًا في النِّضال من أجل المحافظة على المقدسات والحقوق ألأُرثوذكسِيَّة للبطريركيَّة ألاورشليميَّة التي تعرَّضت للانتهاكات في مراحل تاريخيَّة مختلفة.

تَزايُد عدد ألاخَوِيَّة في الدَّير أجبر الرُّهبان على بناء كنيسة أكبر وهكذا بُنيت كنيسة العذراء سنة ٥٠١ م، وجعل الرُّهبان يبادرون بتنظيم الحياة الرَّهبانِيَّة في الدَّير والخدمات الضَّروريَّة حتى تتناسب مع عدد الرُّهبان المتزايد وتلبية ٱحتياجاتهم.

سمعة القديس سابا الروحانيَّة وقداسته جعلت منه قائدًا ومُؤَسِّسًا للحياةِ الرَّهبانيَّة في أورشليم وواضع قوانينها (٤٩٣ م) ليس فقط في ٱلاديرة الرَّئيسيَّة التي بناها حتى رقاده سنة ٥٣٢ وإنَّما في جميع أديرة فلسطين، وكانت اللاڤرا الرَّئيسِيَّة (أي الدَّير الرئيسي) مصدر إلهامٍ للطُّقوس والحياة الكنَسِيَّة.

منذ ١٣ تشرين الأوَّل أُكتوبر شرقي، الواقع في ٢٦ تشرين الأوّل غربي سنة ١٩٦٥ تُحفظ **رفات القدِّيس سابا في ديره** بعد أن تَمَّ ٱسترجاعها من البُندُقِيَّةِ في إيطاليا.

ترأس غبطة البطريرك كيريوس كيريوس ثيوفيلوس الثالث خدمة صلاة السَّهرانيَّة والقدَّاس الألٰهي في هذا الدَّير التاريخي أساقفة وآباء من أخويَّة القبر المقدس، وكهنة الرَّعية الأرثوذكسيَّة والرئيس الرُّوحي للدَّير مع الآباء الرهبان. ورُتِّلت خدمة القداس باللغتين العربيَّة واليونانيَّة.

كلمة صاحب الغبطة بطريرك المدينة المقدسة كيريوس كيريوس ثيوفيلوس الثالث بمناسبة عيد القديس سابا المتقدس

«لأَنَّ يَوْمًا وَاحِدًا فِي دِيَارِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ. اخْتَرْتُ الْوُقُوفَ عَلَى الْعَتَبَةِ فِي بَيْتِ إِلهِي عَلَى السَّكَنِ فِي خِيَامِ الأَشْرَارِ.» (مزمور ٨٣: ١١).

أَيُّهَا الآباء الأجلَّاء والإخوة المحترمون

أَيُّهَا المسيحيُّون الأتقياء

إنَّ نعمةَ الرُّوح القُدُس قد جمعتنا اليوم في هذا المكان المُقدَّس، وهذا الموضع المُبارك في البرِّية لكي نحتفل مُعيِّدين ومكرِّمين تذكار **أبينا البارّ سابا المُتقدِّس المتوشِّح بالله.**

إنَّ **أَبانا البارّ سابا** قد صار مُستوطنًا صحراء فلسطين فصار مُسَاوِيًا للملائِكةِ ومعاشرًا للأبرارِ ونجيَّ الأنبياء ووارثًا مع الرُّسل والشُّهداء مُصغيًا دومًا لوصية القدِّيس بولس الرَّسول: «فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ، الَّتِي مِنْهَا أَيْضًا نَنْتَظِرُ مُخَلِّصًا هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضُعِنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ.» (فيلبي ٣: ٢٠-٢١).

وفي دَيْرِ رَهبنتِهِ وتوحُّدِهِ في هذه اللاڤرا في برِّية اليهوديَّة وفي محيط الأردن، قد تتلمذ **أبونا البارّ سابا** عند أقدام **الآباء العظام المتوشحين بالله** وتعلَّمَ عندهم الحياةَ الرُّوحيَّة، وقد نجح **أبونا البارّ سابا** بقوَّة إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح أن يغيِّر شكل جسده لكي يصير على صورة مجد المسيح المصلوب والقائم من بين الأموات.

وإنَّ أكبر دليل وشاهد على ما نقول هو جسد **أبينا البارّ سابا المتقدِّس ورفاته المفيضة الطِّيب غير البالية**، المحفوظة هٰهنا حيث «يتمجَّد الرَّبُّ فيه في مَلَكُوتِهِ السَّمَاوِيِّ.» (٢تيموثاوس ٤ : ١٨)، «سَاكِنًا الآن فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ» (١تيموثاوس ٦ : ١٦).

إنَّ ملكوت المسيح السماوي والنور الذي لا يُسْبَرُ غوره تُبشِّر وتكرُز به كنيستنا الأرثوذكسيَّة المقدَّسة وذلك من خلال قدِّيسيها الذين يزيِّنون جسد الكنيسة، أي جسد الإله المتأنس ربنا يسوع المسيح وَهُوَ رَأْسُ الْجَسَدِ: الْكَنِيسَةِ. «الَّذِي هُوَ الْبَدَاءَةُ، بِكْرٌ مِنَ الأَمْوَاتِ، لِكَيْ

يَكُونَ هُوَ مُتَقَدِّمًا فِي كُلِّ شَيْءٍ. لأَنَّهُ فِيهِ سُرَّ أَنْ يَحِلَّ كُلُّ الْمِلْءِ، وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ، عَامِلاً الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءٌ كَانَ: مَا عَلَى الأَرْضِ، أَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.» (كول١: ١٨-٢٠).

لهذا السبب يهتف داوود النبيّ قائلًا: «قَدِّمُوا لِلرَّبِّ يَا أَبْنَاءَ اللهِ، قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدًا وَعِزًّا. قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدَ اسْمِهِ. اسْجُدُوا لِلرَّبِّ فِي دِيارِ قدسه.» (مزمور٢٨: ١-٢)؛ فإن جمهور الملائكة قد أنشدوا مسبِّحين الله ومرنمين وقائلين: «الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ». (لوقا ٢: ١٤).

وبشكلٍ أوضح، فليكن مجدٌ لله في أعالي السماوات حيث تسكن الملائكة وعلى الأرض كلِّها **المتخبطة والمضطربة بسبب الخطيئة والأهواء** فليحلّ ويملك السلام الإلهي، وذلك لأنَّ الله قد أعلن الآن ببهاء لطفه وصلاحه على الناس بتجسُّد وتأنُّس ابنه الوحيد.

إن هذا «السلام الإلهي» قد صار مُساهمًا ومشاركًا به **أبونا البارّ سابا** وجميع قديسي المسيح، «لأَنَّ المسيح هو سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِدًا، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ» (أفسس ٢: ١٤).

إنَّ كلمة الله «رَئِيسَ السَّلاَمِ» المتأنس والمتجسد أي المسيح ابن الله الذي وُلد في مغارة بيت لحم من دماء الطاهرة النقيَّة الفائقة على كُلِّ البركات سيِّدتنا والدة الإله الدائمة البتوليَّة مريم، يُبشرنا به مَن نُكرِّمه اليوم **أبونا البارّ سابا** أداة الرُّوح القُدُسِ.

ختامًا نتضرع إلى **أبينا البارّ سابا المتقدس** ونهتف مع المرتل قائلين: «تشفَّع إلى المسيح مُبتهلًا إليه أيُّها البارُّ أن يمنح الكنيسة الوئام والسَّلام والرحمة العظمى»، وأهِّلنا نحن الذين نسبحك أن نُعيّد بسلام وتوبة لميلاد إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح.

كل عام ونعم بخير

الداعي لكم بحرارة بالرب
البطريرك ثيوفيلوس الثالث
بطريرك المدينة المقدسة أورشليم

بما أنَّني أعرف أيُّها الأخوة الأحباء، أنَّ الكثير منكم يتمنُّون أن يُنتقم لهم بسرعة، سواء بسبب ثقل إصابتهم الضَّاغطة، أو بسبب الاستياء من أولئك الذين يهاجمونهم، ويهتاجون ضدَّهم، يجب أن أُحذِّركم أنَّهُ يجب علينا - **عندما نجد أنفسنا في عواصف العالم المضطرب، وفي وسط أضطهادات اليهود أو الوثنيين أو الهراطقة** - أن ننتظر **بصبر** يوم الانتقام.

يجب ألَّا نستعجل الثَّأر لآلامنا بسرعة غاضبة، لأنه مكتوب: «لِذلِكَ فَانْتَظِرُونِي، يَقُولُ الرَّبُّ، إِلَى يَوْمٍ أَقُومُ إِلَى السَّلْبِ، لأَنَّ حُكْمِي هُوَ بِجَمْعِ الأُمَمِ وَحَشْرِ الْمَمَالِكِ، لأَصُبَّ عَلَيْهِمْ حَنَقِي» (صفنيا ٣: ٨). فالرَّبُّ يأمرنا بأن ننتظر ونتحمل **بصبرٍ شديد** إلى يوم الانتقام الآتي.

ويقول أيضًا في **سفر الرؤيا**: «لاَ تَخْتِمْ عَلَى أَقْوَالِ نُبُوَّةِ هذَا الْكِتَابِ، لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ. مَنْ يَظْلِمْ فَلْيَظْلِمْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ نَجِسٌ فَلْيَتَنَجَّسْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ بَارٌّ فَلْيَتَبَرَّرْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ مُقَدَّسٌ فَلْيَتَقَدَّسْ بَعْدُ، وَهَا أَنَا آتِي سَرِيعًا وَأُجْرَتِي مَعِي لأُجَازِيَ كُلَّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ.» (رؤ ٢٢: ١٠-١٢).

لذلك حتى الشُّهداء عندما يصرخون ويستعجلون العقاب في شدَّة آلامهم، يُطلَب منهم أيضًا الانتظار بصبرٍ، حتى يتحقَّق الوقت المُعيَّن، وَيَكْمُلَ عَدَدُ الشهداء. فيقول:

« وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الْخَامِسَ، رَأَيْتُ تَحْتَ الْمَذْبَحِ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ الشَّهَادَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُمْ، وَصَرَخُوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ:«حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ، لاَ تَقْضِي وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ؟» فَأُعْطُوا كُلُّ وَاحِدٍ ثِيَابًا بِيضًا، وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ يَسْتَرِيحُوا زَمَانًا يَسِيرًا أَيْضًا حَتَّى يَكْمَلَ الْعَبِيدُ رُفَقَاؤُهُمْ، وَإِخْوَتُهُمْ أَيْضًا، الْعَتِيدُونَ أَنْ يُقْتَلُوا مِثْلَهُمْ.» (رؤ ٦: ٩-١١).

التتمة في صفحة ٢٠

«فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ.» (مت ٥: ١٦).

«بِلاَ لَوْمٍ، وَبُسَطَاءَ، أَوْلاَدًا للهِ بِلاَ عَيْبٍ فِي وَسَطِ جِيلٍ مُعَوَّجٍ وَمُلْتَوٍ، تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي الْعَالَمِ.» (في ٢: ١٥).

تقديم: المسيحِيَّةُ هيَ المَسيحُ:

تمتاز المسيحِيَّةِ بأنَّها لا يمكن فصلها عن مؤسِّسها، فالمسيحِيَّة هي المسيح؛ إذ لا يمكننا أن نتصوَّر إنسانًا مسيحِيًّا حقيقِيًّا بدون المسيح. فشخصِيَّة المسيح وحياته وأعماله هي حجر الزَّاوية في سلوك أتباعه: «أَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ.» (غل ٢: ٢٠)، «مَبْنِيِّينَ عَلَى أَسَاسِ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَيَسُوعُ الْمَسِيحُ نَفْسُهُ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ الْبِنَاءِ مُرَكَّبًا مَعًا» (أف ٢: ٢٠و٢١). إنَّهُ الألف والياء في الإنجيل ليس المكتوب فحسب؛ بل أيضًا الحيّ المُعاش في بني البشر. **تقول إحدى الليتورجيات القديمة:**

﴿نشكرك لأن اسم مسيحك قد دُعِيَ علينا، وهكذا صرنا معك واحدًا...﴾(١)

فالمسيحيّ الحقيقيّ له فكر المسيح ومشاعره (١كو ٢: ١٦): «لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ.» (أف ٥: ٣٠).

المسيحِيُّون هم المسيح فيما يحبون وما يعملون وما يقولون، فاسمهم في الواقع هو عنوان شاهد لما في قلوبهم. المسيحيّ دُعِيَ آبنًا لله، لأنَّ المسيح الذي هو: «ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرَّت به نفسي» حالٌّ في قلبه وفي فمه وفي أعماله: «مَنْ سَقَاكُمْ كَأْسَ مَاءٍ بِاسْمِي لأَنَّكُمْ لِلْمَسِيحِ، فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَهُ.» (مر ٩: ٤١).

مسيحيُّو القرون الأولى كانت حياتهم شهادة للمسيح شخصيًّا وليست لمبادئ أخلاقِيَّة أو أدبِيَّة. فلم تكن المسيحِيَّة في بدايتها دستورًا أخلاقيًّا جديدًا ينشره المسيحِيُّون، بل شخصِيَّة جديدة هي المسيح. وكان موضوع حياتهم ليس تعاليم المسيح بل المعلِّم نفسه. لذلك كان تبشيرهم بالإنجيل نابعًا من قلوب تكرَّست لشخص المسيح الحيّ ابن الله فادي العالم الذي هو كُفْءٌ لتوصيل روحه لكل البشر. وكما يقول **المؤرخ «جواتكن»:**

﴿لقد اعتقد الرُّسل أنهم لو تمكَّنوا من أن يملأوا قلوب الناس بالشُّكر الحقيقيّ على هبة الحياة في المسيح، لتجلَّى سلوكهم الإنجيلي كنتيجة مباشرة لذلك!﴾(٢)

ولعلَّه في ذلك كان متأثِّراً بالآية: «لِذلِكَ وَنَحْنُ قَابِلُونَ مَلَكُوتًا لاَ يَتَزَعْزَعُ لِيَكُنْ عِنْدَنَا شُكْرٌ بِهِ نَخْدِمُ اللهَ خِدْمَةً مَرْضِيَّةً، بِخُشُوعٍ وَتَقْوَى.» (عب ١٢: ٢٨).

وقد وجد المؤرِّخون صلةً مباشرةً بين سلوك آبائنا المسيحيِّين الأوائل وبين طقوسهم الكنسِيَّة، مثل المعمودية والعشاء الرَّباني والعبادة الطقسِيَّة بوجه عام، تلك التي انبثقت بشكل طبيعي من أخلاقياتهم (٣). كما أنَّهم بينما كانوا في أورشليم يتبعون الطقوس اليهودِيَّة في العبادة في الهيكل والحياة اليومِيَّة، إلَّا أنَّ تقدُّمهم الرُّوحي في السُّموّ عليها دلَّ على صِدْق قول معلِّمهم: «مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ.» (مت ٥: ١٧). كما أنَّ جماعتهم تميَّزت بأنَّها جماعة صلاة. فالصلاة كانت هي المنبع والضمان لوحدتهم وروح الأُخوَّة بينهم. ولقد برز من هذا الطابع من الحياة بذل ذات جماعي لم يكن اتجاهه الحقيقيّ هو الرغبة في إنشاء بدعة اجتماعِيَّة، بل التضحية من أجل كل محتاج إلى معونة مِن أي نوع.

لقد عاش المسيحِيُّون مع بعضهم حياة عائلِيَّة سعيدة، فقد كان الأعضاء يُدعَوْن إخوة، وقد أعطت شركة المحبَّة المتعاطفة بينهم أمثلة حيَّة من السَّخاء. وهكذا اتسع تدريجيًّا نطاق أُخوَّتهم حتى شمل بلادًا وأقطارًا أخرى. وقد عُرفوا بـ «التلاميذ» و«أهل الطريق» و«قديسين».

وقد بنى **الرَّسول بولس** رسائله على أساس حثِّ قُرَّاءها على الثبات في المسيح، ويمكن أن نلخِّص هذا المعنى في مبدأ واحد هو: «أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟... لأَنَّ هَيْكَلَ اللهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ.» (١كو ٣: ١٦و١٧). كما أنَّ الفضائل العائلِيَّة والاجتماعِيَّة كانت سريعًا ما تظهر فيمن يصيرون مسيحيِّين: محبَّة الزَّوج لزوجته، والزَّوجة لزوجها، ومحبَّة وطاعة وإكرام الأولاد لوالديهم، ومحبَّة الأعداء والفقراء؛ فكانوا يسلكون «كَمَا يَحِقُّ لإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ.» (في ١: ٢٧).

خميرة نشيطة:

إنَّ الانتشار السَّريع للمسيحيَّة رغم كُلِّ العقبات والاضطهادات والظُّروف المضادة لَهو أفضل برهان على صِدْق قول الرَّبّ إنَّ ملكوت الله كحبَّة خردل صارت شجرة عظيمة، وكخميرة صغيرة اختمر بها العجين كلّه. وذلك لأنَّ روحانيَّة المسيحيَّة ظهرت في سلوك المؤمنين دون أن يُجبَر أحد على اعتناقها، فقد سيطرت على قلوب البشر بسبب التَّلاقي المبارك بين إرادة الإنسان الحُرَّة التي تعضدها النعمة مع مشيئة الرَّبّ التي نشتهي تحقيقها كل يوم بقولنا: «لتكن مشيئتك، كما في السماء (بين الملائكة والقديسين)، كذلك على الأرض».

ويعزو **المؤرِّخ «جيبون»** انتشار المسيحيَّة السريع إلى:

١ – الغيرة التي تأجَّجت في قلوب المسيحيِّين. وقد اكتسبوها من روح المسيح الذي سكن في قلوبهم.

٢ – عقيدة خلود الإنسان التي لم تكن لدى الفلاسفة القدماء سوى أفكار غامضة عنها.

٣ – القوَّات المعجزيَّة التي أجراها مؤمنو الكنيسة الأولى.

٤ – سلوك المسيحيين الأوائل الذي اشتمل على أكثر الآداب التي عرفتها البشريَّة نقاوةً.

٥ – وحدة الكنيسة ونظامها اللَّذَيْن كوَّنا بالتدريج «ثروة مشتركة»، أي ملكوتًا غنيًّا بالرُّوح ممتلئًا بالحبّ. (٤).

لقد تغلَّغل ينبوع القداسة الذي تفجَّر من المسيح في الحياة العمليَّة لأشخاص لا حَصْر لهم، بطريقة لم تعرفها البشريَّة منذ خِلْقتها وَعَجِزَ **المؤرِّخون** عن أن يصِلوا إليها أو يسجِّلوها مع أنَّها جدَّدت حياة شعوب بأكملها، ومع هذا فقد تسجَّلت في سفر الحياة عند الرَّبّ لكي تُكشَف **يوم الدينونة**.

كانت فاعليَّة المسيحيَّة في المؤمنين هادئة وعميقة في قلوبهم، ومع ذلك فقد استرعت أعمال النعمة الإلهية فيهم انتباه **المؤرِّخين**. فمن يستطيع أن يقيس العُمق والعَرض لكل تلك الخبرات المباركة للتسامح، وسلام القلب الداخلي، والثقة في الله، والحبّ لله وللإنسان، والاتضاع والوداعة والصبر والتسليم؛ تلك الخبرات التي تفتَّحت كزهور الربيع في تُربة القلب المتجدِّد بالإيمان، منذ حلول الرُّوح القُدُس على الكنيسة الأولى وإلى الأبد! مَن يستطيع أن يُحصي عدد الصلوات الملتهبة والتوسُّلات التي رُفعت من المخادع والكهوف والصحاري وقبور الشهداء، في الليل الهادئ وفي وضح النهار، لأجل الأصدقاء والأعداء، لأجل كل طبقات البشر، وحتى لأجل **المضطهِدين القساة**، إلى عرش المخلِّص؟! كم تأصَّلت الحياة بجذورها في أعماق النفس البشريَّة وظهرت في سلوك المؤمنين الخارجي وأثَّرت تأثيرًا عجيبًا في كل المجالات!

والسَّبب في ذلك واضح، وهو أن المسيحيَّة تتميَّز بإمكانيَّة وسهولة ممارسة الفضيلة والتقوى بمعونة نعمة المسيح: «لأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللهِ الْمُخَلِّصَةُ، لِجَمِيعِ النَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ...نَعِيشَ بِالتَّعَقُّلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي الْعَالَمِ الْحَاضِرِ» (تي ٢: ١١و١٢)، «وَتَفَاضَلَتْ نِعْمَةُ رَبِّنَا جِدًّا مَعَ الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.» (١تي ١: ١٤)، «لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (مت ١١: ٣٠).

وأعلى مستوى من الحبِّ لله وللإنسان، الذي وضعت المسيحيَّة أساسه، تظهر براهينه في سِيَر أولاد الله في كُلِّ جيل، أولئك الذين تكلَّمت أعمالهم بأكثر من كلامهم. إنَّ أجمل المبادئ الأدبية لم تَقْدِر أنْ تلد العالم ثانية ولا أن تغلبه، ولكن إنجيل المسيح قد فعل ذلك ولا يزال: «ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ» (يو١٦: ٣٣)، «كُلَّ مَنْ وُلِدَ مِنَ اللهِ يَغْلِبُ الْعَالَمَ. وَهذِهِ هِيَ الْغَلَبَةُ الَّتِي تَغْلِبُ الْعَالَمَ: إِيمَانُنَا.» (١يو٥: ٤).

من كلمة المسيح وروحه، ومن حياته في الكنيسة وتملُّكه عليها؛ نَبَع وفاض نَهْرٌ من قوة فداء وتقديس ومجد في قلوب الأفراد والعائلات والأُمم على مدى تلك القرون العشرين، وسيظل ينبع حتى يصير الله الكُلّ في الكُلِّ.

ونحن لا يُعوزنا أنْ نوضِّح السُّلوك المسيحيّ في حياة الرُّسل أو المؤمنين الأوائل المذكورة في الإنجيل وعلى الأخص سفر أعمال الرسل. ولكننا نريد أن نلمس هنا استمرار حياة المسيح في أولئك الذين وَلَدتهم الكنيسة للمسيح بقُوَّةٍ وفاعليَّةٍ ونعمة الرُّوح القُدُس سواء على المستوى الفرديّ أو الجماعيّ، وذلك بشهادة الفلاسفة وحتى **الأعداء والوثنيين والأباطرة**. وسِيَر القديسين والقديسات – التي نحتاج إلى قراءتها والتأمُّل فيها والاقتداء بها – قد جعلت الكثيرين يكتبون محاولين الاقتراب من أسرار هذه الحياة الجديدة على جنس البشر والمذهلة حقًّا بسبب القُوَّة الإلهيَّة التي فيها.

أنوار وسط جيل مُعوَّج وَمُلْتَوٍ:

يقول **الفيلسوف «جوته Goethe»**: ﴿**إنَّ الصراع بين الإيمان وعدم الإيمان يظل هو الموضوع الجوهريّ والوحيد والأعمق لتاريخ العالم والبشريَّة الذي يخضع له جميع الناس**﴾(٥). فإذا قارنَّا بين المؤمنين بالمسيح وغير المؤمنين، نجد أنَّ المؤمنين كانت لهم جِدِّية في أخلاقهم تباينت بشدة مع **الفساد** الذي كان سائدًا في القرون الأولى. لقد صدَّت المسيحيَّة **الطائشين والشهوانيين**، وفي نفس الوقت لم تتوقَّف عن أنْ تؤثِّر بقوة عجيبة في أعمق وأنبل الأذهان، كما أنَّ ولع الفقراء والمظلومين بالإنجيل شَهِدَ لقُوَّتِهِ المعزِّية والمُجدِّدة، وهكذا كان المسيحيُّون يَشِعُّون بحياتهم الإنجيلية مثل كواكب عديدة وسط **ظلمة خطايا** البشر(٦).

وفي وسط فساد حياة الوثنيِّين الكئيبة المظلمة فتح الله ينبوع القداسة والمحبة والسلام الذي ناله المسيحيون من معلِّمهم، فصار هذا القطيع الصغير ينبض بالحياة والرَّجاء، **مِلحًا للأرض ونورًا للعالم**. كانوا فقراء في ممتلكات هذا العالم، ولكنهم امتلكوا الكنوز غير الفانِيَة التي لملكوت الله. كانوا ودعاء وَمُتَّضِعي القلوب ما أهَّلهم أنْ ينالوا وعد الرَّبّ بوراثة أرض الميعاد، وبخضوعهم للرَّبِّ غلبوا العالم، وبالتأَلُّم والموت معه ربحوا إكليل الحياة.

لقد أوضح المدافعون عن الإيمان – ابتداءً من كاتب الرسالة إلى ديوجنيتس، العلَّامة أوريجانوس والقديس كبريانوس والمغبوط أغسطينوس، بطرق مختلفة وقويَّة – تَفَوُّق الأخلاق المسيحيَّة على **الوثنيَّة**، وقد تأيَّدت شهاداتهم تمامًا بثمار المؤمنين العمليَّة. ويقول أحد **المؤرِّخين**:

﴿إذا قارنَّا الحالة الأدبيَّة لشعوب الكنائس الرَّسوليَّة بأحوال اليهود والوثنيِّين المحيطين بهم، فكأنَّنا نقارن بين: واحة خضراء ذات ينابيع حيَّة وأشجار مثمرة، **وصحراء قاحلة ليس فيها سوى رمال وأحجار**. لقد كان السُّلوك اليومي للمسيحيِّين الأوائل عبارة عن شركة حيَّة مع المسيح في سعي متواصل إلى تمجيد الله وخلاص الإنسان، فكثير من الفضائل الرئيسيَّة مثل الاتضاع ومحبَّة الأعداء كانت غير معروفة قبل المسيحيَّة؛ أمَّا التقوى الإنجيليَّة فكان يمثِّلها الرُّسل مثل بطرس وبولس ويوحنا في نماذج مختلفة، فقد كانوا أقرب ما يكون إلى ما يستطيع الجنس البشري أن يُحقِّقه من الكمال في عالم كلّه **خطيَّة**: « بِلاَ لَوْمٍ، وَبُسَطَاءَ، أَوْلاَدًا للهِ بِلاَ عَيْبٍ فِي وَسَطِ جِيلٍ مُعَوَّجٍ وَمُلْتَوٍ، تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي الْعَالَمِ.» (في ٢: ١٥)﴾(٧)

كَتَبَ العلَّامة ترتليان مُخاطبًا الوثنيِّين في القرن الثالث الميلادي:

﴿لم يَقُل أحد ولا رأى ولا سمع أنَّهُ يوجد بيننا شيء له علاقة بجنون السيرك أو عدم حشمة المسرح أو وحشيَّة ساحة الصراع (أو الملاكمة) أي التمرينات الباطلة في أرض المصارعات، فلماذا تهتاجون علينا لأنَّنا نختلف عنكم فيما يتعلَّق بملذَّاتكم؟ إنَّ عدم مشاركتنا في مسرَّاتكم يجعلنا خاسرين حسب مفهومكم. نحن ننبذ ما يسرُّكم، وأنتم أيضًا لا تتذوَّقون ما يُفْرِحُنا.﴾(٨)

ويقول الشَّهيد يوستينوس:

﴿إنَّهم يظنون أنَّنا مجانين لأننا نعبد هذا المسيح الذي صُلِب تحت حُكم بيلاطس البنطيّ كإله، ولكنهم لو عرفوا سرَّ الصليب لَمَا قالوا ذلك، ولكن يمكنهم أن يعرفوه من ثماره (أي ثمار الصليب في المؤمنين). فنحن الذين عشنا في الفِسْقِ وكُنَّا نخدم شهواتنا، نتلذَّذ الآن بالعفة والأخلاق الطاهرة.

نحن الذين كنا نسير وراء السِّحر والشعوذة كرَّسنا أنفسنا الآن لله الصالح الأبدي. نحن الذين كنا نحبّ المال والممتلكات أكثر من أي إنسان، نسلِّم الآن ما عندنا بلا مقابل لأجل المنفعة العامة للكُلِّ ونُعطي كل محتاج. نحن الذين كنَّا نُبغض ونقتل بعضنا بعضًا، نصلِّي الآن لأجل أعدائنا. نحن الذين ما كُنَّا نوافق على أن نشترك في المأوى مع الغرباء بسبب اختلاف عاداتنا، فإننا الآن – منذ مجيء المسيح – نعيش معهم، ونحاول برفق أن نُهدِّئ من روع الذين يضطهدوننا بحقد ويُبغضوننا بلا سبب، ونُقنعهم بأن يُعدِّلوا حياتهم وفقًا لتعاليم المسيح السامية رجاءً في أن يُشاركونا في البركات التي نتمتع بها والمذخرة لنا عند الله ضابط الكُلِّ.﴾

(المذخرة = ذَخَرَ الشيء: خبَّأَهُ واحتفظ به لوقت الحاجة).

(1) Dict. of the Apostolic Church, Vol. 1, p. 200.
(2) Early Church Hist., I,55.
(3) Dict. of the Apostolic Church, Vol. 1, p. 200.
(4) E. Gibbon: History of the Decline and Fall of the Roman Empire, ch. 15.
(5) Ph. Schaff, History of Christian Church, Vol. I, p. 197.
(6) Ibid., Vol. II, p. 14, 385.
(7) Ibid., Vol. I, p. 434.
(8) Apology, ch. 38.

السيِّدة أَثِينَه چوفي، – أثَناسِيُّو دياكو ٢٢ كاتو أوڤريًا – باترا، اليونان تتحدَّث مع رئيسة دير ماليقي العامر للرُّوم الأرثوذكس قائِلةً:

قضيتُ سبعة أعوام وأنا متزوّجة، حاولت فيها الحبل والإنجاب، ولكن بدون جدوى.

زرتُ الأطباء، وقمت بالفحوصات اللَّازمة ، حتى الجراحيّة إن استلزم الأمر، ولكن باءت كُلّ هذه المحاولات بالفشل الذريع.

ذهبتُ إلى **ديركم العامر دير ماليقي للعذراء مريم**، وقمتُ بالسجود والتضرّع والصلاة بحرارة شديدة، طالبةً بلجاجة من العذراء أن تُهدينا ولدًا أو ابنةً، رشمتُ نفسي وجسمي، وبالذّات بطني **بالميرون المقدّس بشكل صليب**. رجعتُ بعدها إلى البيت، مليئة بالأيمان، وفعلًا في نفس الشهر، حبلتُ بطفلٍ جميل أدخل الفرح والسعادة إلى بيتنا الذي يتنظر هذه اللحظة منذ سنوات عدَّة

شكرًا إلى العذراء مريم صاحبة الدَّير العامر دير ماليقي على عظيم محبتها، وعلى هذه البركة والنعمة التي وهبتنا إيّاها. أقولها والدموع تنهمر من مُقلتيّ من شدَّة الغبطة والحبور.

التطويبات

طوبى للمساكين بالرُّوح (8)

المُؤلِّف: هو الأب أنتوني م. كونياريس كاهن يخدم في كنيسة القديسة مريم اليونانيّة (الروميَّة) الأرثوذكسيَّة في مينيابوليس،في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، وهو يتميَّز بغيرة رسوليَّة حارَّة. كان مسئُولًا عن العمل الأرثوذكسي الطلابي بجامعة مينيسوتا حيث كان يخدم في المجمع الاستشاري الديني. وقد نجحَ من خلال كتاباته في جعل الروميَّة الأرثوذكسيَّة للشباب رسالة ذات تقليد حيّ، تتقبَّل كُلّ ما هو حقيقي وجميل، وترفض كُلّ ما هو زائف وفاسد.

التواضع ينْبَثِق من رؤية المَجد:

تواضع الملائكة والقدِّيسين ينبثق من رؤية مجد الله وعظمته وجماله، والشعور بأنَّ الله قدوسٌ جدًّا وفي غاية الكمال والقوَّة واللامحدودِيَّة والرَّهبة والرَّحمة، حتى يُصبح الشيء الوحيد الذي نستطيع عمله في حضوره هو أنْ نسجد أمامه بالرُّوح والحقّ، بالعبادة والفرح والتعجُّب. هذا هو التواضع الحقيقي وليسَ المذلَّة، إنَّهُ تعظيم بِرَهْبَةٍ وليسَ عن خوفٍ.

بعض أمثلة التواضع:

إنَّ أعظَم مثال للتواضع هو الرَّبّ يسوع المسيح الذي أَخلَى ذاته لأجل خلاصنا. الذي من أجلنا افتقر وهو غنيٌّ كي نستغني نحنُ بفقره.

وهناك مثالٌ آخر هو يوحنَّا المعمدان، الذي عندما قَلَّ عدد الذين يأتون ليتعمَّدوا منه، اشتكى له تلاميذه بأنَّ هذا النبيّ الجديد الذي يُدعى يسوع الناصريّ، سَرَقَ مجده واستعار طُرقه وفاقَهُ، حينئذ أجابَ يوحنَّا – الذي كان أبعد ما يكون عن الحَسَد – إنَّ على الجموع الآن أنْ تتبع يسوع، وأنَّه يجب أنَّ هذا يزيد بالأكثر وأنا أنقُص بالأكثر: «ينبغي أنَّ ذلك يزيد وأَنِّي أنا أنقص» (يو ٣:٣٠).

سِير أسحٰق نيوتن:

قليل من العُلماء يستحقُّون تقديرًا أكثر من **إسحٰق نيوتن** الذي اكتشف قانون الجاذبيَّة الأرضيَّة وابتكر كثيرًا من المعادلات وأُسس الرِّياضيات الحديثة. بهذه العقليَّة اللَّامعة كان يمكن أن يكون شخصًا متعاليًا مُتكبِّرًا، لكنه باتضاعٍ كبير قال: « أنا لا أعرف كيف ينظر لي العالم، لكن بالنسبةِ لذاتي، أنا أُشبه طفلًا يَلهو على شاطىء البحر وأُمَتِّع نفسي بين الحين والآخر بأن أكتشف قوقعة أجمل، أو حيوانًا رخوًا أملس من الطبيعي، ولكن المحيط الأعظم من الحقيقة كامنٌ كلُّه في القاعِ غير مكشوف أمامي».

فرانز جوزيف هايدن:

مثلٌ أخير.

في ٢٧ مارس آذار سنة ١٨٠٨م كان هناك عرض لمسرحِيَّة الخليقة في **ڤيينا**. وكان المؤلِّف نفسه **فرانز جوزيف** من ضمن الحاضرين، كان كبيرًا في السِّن في السادسة والسبعين من عمره. وكان ضعيفًا جدًّا حتَّى أنَّهُ أُخِذَ إلى المسرح على كرسيّ بعجلات.

أَلْهَبَ حضوره حماس المتفرِّجين الذين لم يستطيعوا أنْ يهدأوا حين بدأت الأوركِسترا والكورال عزفهم بأقصَى قوَّتهم، وهم يقولون: «**كان نور**». في وسط ذلك الضجيج من المستمعين شوهِدَ المؤلِّف العجوز يجاهد ليقف على قدميه، واستجمعَ قِواه، وفي رَدِّهِ على هُتاف المشاهدين له صرخَ بأقصَى قوَّته: «**لا، لا ليسَ هذا منِّي بل من الله**»، وقال: «**من السماء يأتي كُلُّ شيء**». قال هذا وهو يُشير إلى السماء.

عندئذ ارتمى على الكرسيّ فاقدًا الوعي مُنهك القِوَى، وكانَ لابُدَّ أن يُحمَل خارج المسرح.

أختم موضوعي بترنيمة بَهِجة يُنشَد بها في أحد الفريسي والعشَّار ترمي في معناها إلى فضيلة الاتضاع.

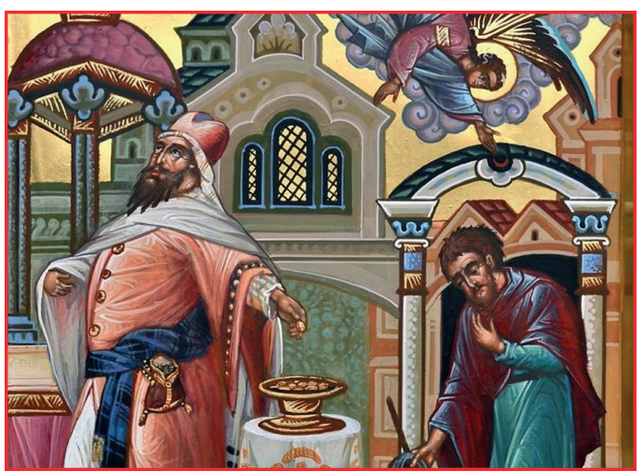

« تعلَّمي من الرَّبِّ يا نفسي. فإنَّه من أجلِكِ وضَعَ ذاته، إلى الموت؛ موت الصَّليب، فإنَّ كُلَّ من يضع نفسه يرتفع، ومن يرفع نفسه يتَّضِع. لا تكوني متكبِّرة من أجلِ أعمالك الحسنة».

انتهى كتاب التطويبات

«تَعَالَ وَانْظُرْ» (يو١: ٤٣-٥١). كيف يمكننا أن نتحدث عن هذه العروس الخاصة بالمسيح، تلك التي تشترك في لاهوته وناسوته والتي اغتسلت بدم الحمل وتنسكب فيها أمواج الرُّوح المُضيئة؟

«ناظرين قيامة المسيح»:

لا يستطيع المرء أنْ يتكلَّم إلَّا عمَّا رآه وما عاشه وما أحبَّه، وإلَّا فإنَّ الكلمات الباردة والجَّافة تغشّ وتُشوِّه السِّرّ. وتنبع لغتنا اللَّاهوتيَّة ووعظنا الطقسيّ والتبشيريّ من العمقِ السرِّي للخبرة الروحِيَّة التي هي الأكثر عموميَّة، والأكثر شخصِيَّة وحميمِيَّة بآنٍ واحد. إنَّها خبرة اللمس مثل **القديس الرَّسول توما**، وخبرة رؤية القائم من بين الأموات التي **ليوحنا اللَّاهوتي**: «الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ... وَنَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هذَا لِكَيْ يَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلًا.» (١يو ١: ١-٤)

يتساءل القديس سمعان اللَّاهوتي الحديث عن هذا ويوضح لنا:

﴿إنَّ العبارة المقدسة التي يجب أنْ نتكلَّم بها دائمًا ليست هي فقط أنْ نكون «**مؤمنين بقيامة المسيح**»، ولكن «**ناظرين قيامة المسيح**». ولكن كيف يدفعنا **الرُّوح القُدُس** إذًا لأن نقول: «**ناظرين قيامة المسيح**» كما لو كُنَّا قد رأيناها بالفعل ونحن لم نرَها بالتأكيد؟! إنَّ **قيامة المسيح** تدفعنا على العكس للشهادة للحقِّ؛ ذلك الحقّ الذي يعيد **قيامة المسيح** داخل كُلِّ واحد منَّا نحن المؤمنين. ويحدُث ذلك لا مرَّة واحدة، بل في كُلِّ ساعة عندما يُظهِر **المسيح القائم فينا نفسه وهو مبيض الثياب ولامعًا ببهاء عدم الفساد الإلهي**. المجيء المنير الذي **للرُّوح** يجعلنا نلمح **قيامة المعلِّم** كما في النَّهار، بل ويمنحنا بالأحرى **نعمة رؤيته هو ذاته ذاك القائم من بين الأموات**.﴾ (تعليم١٣)

شركة القدِّيسين هي وديعة الإيمان الرَّسولي الثَّابت والتي لا يمكن التصرُّف فيها:

إنَّنا نصل بالضَّرورة إلى سرِّ الرُّوح القُدُس، ذاك الذي ليس له اسم، ولكن الذي فيه تنال جميع الأسماء الحياة وتتلاقى في سرِّ المسيح. الرُّوح الذي هو نفس ونفخة الحياة الخاصة بالكنيسة، إنَّهُ أساس معرفتنا التي هي: **شخصِيَّة وكَنَسِيَّة**، بآنٍ واحد. فلنتوقَّف قليلًا عند هاتين الطريقتين للخبرة الروحِيَّة وللمعرفة اللَّاهوتِيَّة:

فأولًا، إنها **المعرفة الكنسِيَّة**، معرفة القديسين على مَرِّ الأزمنة؛ أولئك الذين يشربون بٱستمرار مِنَ النبع الأبدي الذي للماءِ الحيّ والمعرفة. **معرفة القديسين، وبالتالي شركة القديسين**، حيث عقيدة الإيمان تُشكِّل الوديعة الثابتة والتي لا يمكن التصرُّف فيها: وديعة الإيمان الأرثوذكسي المنتقل عَبْرَ الأجيال والمحتوَى داخل الكنيسة والتي هي جديدة دائمًا ولا تبطُل أبدًا.

نستطيع أنْ نقول إنَّ هذا الإيمان الكنسي يُشكِّل جوهر الأرثوذكسِيَّة ذاته، بشرط الاسترجاع المستمر للطابع الحيّ غير الموصوف والناتج عن الخبرة الخاصة بالأرثوذكسِيَّة وبإيماننا الصحيح.

معاني مصطلح «أرثوذكسي»:

إنَّني أُذكِّر باستمرار بأن مصطلح «أرثوذكسي» يشتمل على مفهوم ثلاثي المحتوَى:

مفهوم «مجد الله»:

† فتعبير «**دوكسا**» ΔΟΞΑ يعني أولًا «مجد الله»، أي مجد ذاك الذي يُظهِر ذاته في الحقِّ والحبِّ والبهاء، كما يقول المرنم: «اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ» (مز١٨: ١).

† وهكذا فإنَّ الأشِّعة المنيرة التي للمجد الإلهي تتغلغلنا وتحوِّلنا في كُلِّ حياة الكنيسة.

† وبقدر ما إنَّ مجد الله هو صفة إلهيَّة أو بالأحرى طاقة إلهيَّة وثالوثيَّة، فإنَّهُ يحمل في داخله كل الصِّفات الإلهِيَّة، تمامًا مثلما تُنير أشعة شمس الثالوث وتُقدِّس العالم وتُظهر فيه الحكمة والحبّ الإلهي الأزلي الذي لله.

نمتلك معرفة الله المعاشة في الكنيسة:

وفي المقام الثاني، فإنَّ الأرثوذكسِيَّة تحتوي على تمجيد الله بواسطة الخليقة أي بواسطة الكون كلّه. إنَّ كُلّ حياتنا الكنسِيَّة والليتورجِيَّة هي تمجيد حيث إننا نمجِّده ونسبِّحه.

وهكذا يقع المقام الثالث للأرثوذكسيَّة في داخل المضمون الحيّ الذي لهذه التسبحة، وهذا التمجيد المتبادَل بين الله وخليقته، حيث تجرؤ الخليقة على التحدُّث عن الله، أنْ تتكلم عنه في صيغة ضمير الغائب (هو)، وعلى أنْ تُقدِّمه طبقًا لوسائل العقل الإنساني المتعددة أي بواسطة الكلمات المنطوقة والموسيقى والأيقونات.

ولكي نفعل ذلك، يجب علينا أن ننغمر في خِضمّ الأمواج المنيرة التي للخبرة الكنسيَّة المُعاشة، وأنْ ننصهر ونموت فيها لدرجة أنْ تصير هذه المعرفة المُعاشة من قِبَل الكنيسة ومن قِبَل القديسين مِلْكًا لنا بالحقيقة؛ بمعنى أن تصير أكثر خصوصيَّة بالنسبة لنا، وفي تناغم سرّي مع الحبّ.

وهكذا يجد البُعد الشَّخصي الحميمي الذي للخبرة الروحيَّة والمعرفة اللَّاهوتيَّة معناه الحقيقيّ وكُلّ ملئه. وهكذا تنطوي هذه المعرفة اللَّاهوتيَّة والروحيَّة على إنارةٍ حقيقيَّةٍ من قِبَل الرُّوح القُدس، وعلى التجديد المرتبط بالمعمودِيَّةِ لكل كياننا ولكُلّ عقلنا وتوَجُّهنا وإدراكنا وإرادتنا.

إنَّ من يقول «**معمودِيَّة**» يعني: طرد القوات الشِّريرة، والنُّسك والجهاد الرُّوحي ضِدّ الشَّهوات المميتة، والتجديد اليومي لعهد المعمودِيَّة بالأمانة للمسيح ولكنيسته، وتحقيق مسحة الرُّوح القُدُس تأكيدًا لعبارة **يوحنَّا الرسول**: «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مَسْحَةٌ مِنَ الْقُدُّوسِ وَتَعْلَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ.... وَأَمَّا أَنْتُمْ فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ، وَلاَ حَاجَةَ بِكُمْ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أَحَدٌ، بَلْ كَمَا تُعَلِّمُكُمْ هذِهِ الْمَسْحَةُ عَيْنُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ حَقٌّ وَلَيْسَتْ كَذِبًا. كَمَا عَلَّمَتْكُمْ تَثْبُتُونَ فِيهِ.» (١يو٢: ٢٠و٢٧).

الكنيسة تقع في قلب سِرّ المسيح:

بعد هذا التأمُّل المبدئي في الخبرة المُعاشة للأرثوذكسيَّة كنت أودُّ لو أتوقف عند **سرِّ الكنيسة** ذاتها. إنَّنا نعرف ذلك التأكيد الشهير للأب «جورج فلوروفسكي»، الذي طبقًا له، لا تُشكِّل دراسة **علم الكنسيات** siologieéL'eccl بابًا مستقلًا عن دراسة **علم اللَّاهوت الأرثوذكسي**، حيث يجب أنْ تقع هذه الدراسة في قلب دراسة **علم ما يخصّ المسيح** Χριστολογία - Christologie أي «سِرّ المسيح». إنَّ الكنيسة بالتأكيد هي هذا الوَسَط الحيّ أو هذا المكان الخاص بالرُّوح. وبحسب لغة الأب «تيّار دي شاردان»: ﴿فلنُجدِّد استخدام هذا التعبير المُفضَّل لدى **القديس باسيليوس الكبير**: «الوَسَط الإلهي»﴾. ونستطيع أنْ ندعو الكنيسة كما سمَّاها الأب «نيقولا آفاناسيف»: «كنيسة الرُّوح القُدُس». ولكن تتأسَّس الرُّؤية الأساسيَّة للأب فلوروفسكي على الثقة في أنَّهُ منذ **تجسُّد الكلمة الأزلي، ومنذ اتحاده الزيجي مع الطبيعة البشرية المختومة بدمه على الصليب**؛ تظهر الكنيسة منذ ذلك الحين فصاعدًا، كجسد المسيح السرّي، لدرجة أننا لا نستطيع أن نتكلم عن الرأس دون الجسد ولا عن الجسد دون الرأس.

تتجاوز هذه الرؤية مفاهيمنا المدرسيَّة والقانونيَّة المعتادة عن الكنيسة باعتبارها مؤسَّسة ومجتمعًا إنسانيًّا شرعيًّا. وتُذكِّرنا الثِّقة في هذه الرؤيا أيضًا – مع الأب فلوروفسكي – أنَّ الكنيسة تُشكِّل باستمرار في آنٍ واحد: صورة «**الطريق**» **in statu viae**، أي هي **طريق ومسيرة وحِجٌّ نحو الملكوت** ونحو طريق اكتمالها في أورشليم السَّماويَّة، حيث رؤية الحَمَل المذبوح المنتصر وجهًا لوجه؛ وأيضًا وبنفس المقدار صورة «**الوطن**» **patriae statu** أي في انتظار وتذوُّق الملكوت وطننا الحقيقيّ. أودُّ هنا أن أقتبس أيضًا قول الأب «بول فلورِنسكي» هذا الشَّاهد الكبير للإيمان والبصيرة الرُّوحيَّة: «كلما اقتربت نهاية التاريخ، تأتي أشعة جديدة غير مرئيَّة؛ أشعة وردِيَّة لنهارٍ يبزغ ولا يغرب لكي تلمس قباب الكنيسة المقدَّسة».

الكنيسة في صورة الثالوث القُدُّوس هي علاقة شركة وحبّ:

يقع سِرّ الإفخارستيَّا في موقع القلب لسرِّ الكنيسة وسِرّ خبرتنا الكنسيَّة الحيَّة، غير معتبرين أو مختزلين إيَّاه كمجرد سِرّ وسط باقي الأسرار، بل السِّر الرَّئيس، بل هو التعبير الكامل عن الكنيسة وإعلانٌ للملكوت فيها. لقد صارت العقيدة الإفخارستيَّة للكنيسة حقيقة جوهرية لضميرنا الأرثوذكسي الكنسي. يقوم المفهوم الإفخارستي للكنيسة على ممارسة صعبة ولكن ضروريَّة، لِمَا نسميه «**المجمعيَّة**» **égialitécoll**، وما يمكن أن ندعوه «المجمعيَّة الدائمة للكنيسة».

يجب «أوليفييه كليمون» أنْ يُذكِّرنا بأنَّهُ بقدر ما تكون الكنيسة ذاتها في حالة «**مجمع دائم**» بقدر ما يستطيع حَدَث انعقاد مجمع أنْ يتحقَّق بواسطة نعمة الرُّوح القُدُس. يجب أن تُعاش هذه المجمعيَّة على كل مستويات الحياة في الكنيسة، أي على مستوى الإيبارُشيَّة والإقليم، وفيما بين المؤمنين وبعضهم، وذلك بتوجيه وقدوة الرئاسات الكنسيَّة.

وهنا أتوقف ثانية للحظة، عند هذا المفهوم عن الكنيسة كصورة الثالوث الإلهي. إذ يُعلَن سِرّ الاتِّحاد الثالوثي ذاته كسرِّ حبٍّ لانهائي، حيث تكون النتيجة الحتميَّة أنْ يصير الحبّ هو المحرك الأساسي للوحدة في الكنيسة ولحياة الكنيسة بأكملها، وبالأخص في العلاقات بين الرئاسات وشعب المسيح بأجمعه.

لقد كرَّس الأب «نيقولا آفاناسيف» فيما مضى دراسة عنوانها: «**سلطان الحبّ**» لكي يؤكِّد على أنَّ الحبّ يجب أن يكون هو المحرك الوحيد لممارسة السلطة داخل الكنيسة. بهذه الطريقة تتحدَّد الكنيسة وتظهر في علاقة شخصيَّة لا يمكن الارتداد عنها في مواجهة كل أقنوم من أقانيم الثالوث؛ فالكنيسة هي أهل وبيت «أبي الأنوار الذي منه تأتي كل موهبة تامة» (يع ١: ١٧)، حيث تظهر فيها أُبوَّة الله وتبنِّي الأبناء.

والكنيسة هي أيضًا جسد المسيح وعروسه حيث يتعاقب حضور المسيح في جسده (أي الكنيسة التي من خلالها نستدعي مجيء الرُّوح القُدُس)، مع الحياة في الرُّوح الذي فيه نصرخ: «آمِينَ. تَعَالَ أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ.» (رؤ٢٢: ٢٠)؛ حيث أخيرًا تظل الكنيسة هي هيكل الرُّوح القُدُس الذي فيه تبقى **في ملء وديمومة مواهب عيد العنصرة**.

مُقدِّمة:

يتكلَّم داود النبيّ في المزمور ٦٤، وخاصةً في العدد ١١ – في منظرٍ واقعي – عن سنة المحصول الغزير الإنتاج الذي يَهَبُهُ الرَّبُّ للمُزارع المجتهد العمَّال: «**تُبَارِكُ إِكليل السنةِ بِطِيبِكَ**». فبعد شقاء وتعب السَّنة كلِّها في الحرث والزَّرع والرِّعاية، يحصد الفلَّاح ثمر الأرض: «هُوَذَا الْفَلاَحُ يَنْتَظِرُ ثَمَرَ الأَرْضِ الثَّمِينَ، مُتَأَنِّيًا عَلَيْهِ حَتَّى يَنَالَ الْمَطَرَ الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ.» (يع ٥: ٧). ولا ينسى الإنسان أن يشكر الرَّبَّ الذي كلَّل السَّنة بجُوده وصلاحه وَرِزْقِهِ الوفير: «**تُبَارِكُ إِكليل السَّنةِ بِطِيبِك**».

أمَّا قول النبيّ: «**وَبِقَاعُكَ تكثُرُ مِنَ الخِصبِ**»، فهو يستكمل صورة الحصاد المُبهج للفلَّاح، عندما يُحمِّل العربات بالمحصول الوفير، حتى أنَّهُ من ثِقَل وملء العربات بالإنتاج الغزير، يتساقط بعضٌ من المحصول من العربات على جنبات الطريق، وفي هذا إشارةٌ واضحة إلى بركة الرَّبّ التي «هِيَ تُغْنِي، وَلاَ يَزِيدُ مَعَهَا تَعَبًا» (أم ١٠: ٢٢). وهكذا تَظهر بركة الرَّبّ وغِنَى عطاياه التي تفيض بالخير والسَّخاء.

وهذا ما نُلاحظه في حياتنا، إذ نجد أنَّها تُشبه الأرض التي تحتاج من الفلَّاح إلى تعبٍ وجهادٍ، وتنتظر من قِبَل الرَّبّ هطول الأمطار وفيض النعمة. وفي كلِّ هذا كما قيل في سِفْر التثنية: «أَرْضٌ (أو نفسٌ) يَعْتَنِي بِهَا الرَّبُّ إِلهُكَ. عَيْنَا الرَّبِّ إِلهِكَ عَلَيْهَا دَائِماً مِنْ أَوَّلِ السَّنَةِ إِلَى آخِرِهَا» (تث١١: ١٢). وهنا يسترعي انتباهنا أنَّ جهادنا وتعبنا وحده لا يكفي لكي تُثمر حياتنا ثمر البِرِّ لمجد اسم الرَّبّ القدوس؛ كما أنَّ الرَّبّ لا يعمل بدون رغبتنا أو بدون إرادتنا وسَعْينا. فلابُدَّ، إذن، من توافُق نعمة الرَّبّ مع سَعْي وجهاد الإنسان، حتى يُثمر في النهاية ثمار الرُّوح القُدُس: «مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ» (غلا ٥: ٢٢،٢٣).

هذا التوافُق بين نعمة الرَّبّ وجهاد الإنسان، شبيهٌ بمركبٍ ذي شِرَاعٍ، فمَن يقود المركب يُمسِك بالمجدافين؛ لكن في نفس الوقت تسوق المركب رياحٌ تُحرِّك الشِّرَاع وتدفع المركب إلى الأمام. فالمجدافان والشِّرَاع معًا، وبتوافقٍ تام، يسوقان المركب، فيتقدَّم إلى الأمام ويمخُر عُباب البحر حتى ولو كان هائجًا.

فعناية الرَّبّ وسِتْره نُلاحظهما دائمًا من أوَّلِ السَّنة إلى آخرها، بل أقول: من أول اليوم إلى آخره: «إِنَّهُ مِنْ إِحْسَانَاتِ الرَّبِّ أَنَّنَا لَمْ نَفْنَ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ لاَ تَزُولُ. هِيَ جَدِيدَةٌ فِي كُلِّ صَبَاحٍ. كَثِيرَةٌ أَمَانَتُكَ» (مراثي: ٣: ٢٢،٢٣).

«سنة الرَّبّ المقبولة»:

في نبوءة إشعياء النبي، يتكلَّم الرَّبّ على فم النبيّ قائلًا: «رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ. لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ، وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلهِنَا. لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ. لأَجْعَلَ لِنَائِحِي صِهْيَوْنَ، لأُعْطِيَهُمْ جَمَالاً عِوَضاً عَنِ الرَّمَادِ، وَدُهْنَ فَرَحٍ عِوَضاً عَنِ النَّوْحِ، وَرِدَاءَ تَسْبِيحٍ عِوَضاً عَنِ الرُّوحِ الْيَائِسَةِ، فَيُدْعَوْنَ أَشْجَارَ الْبِرِّ، غَرْسَ الرَّبِّ لِلتَّمْجِيدِ» (إش٦١: ١-٣).

وفي أيام تجسُّد الرَّبّ يسوع وخدمته، عندما جاء إلى الناصرة، دخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ، فدُفِعَ إليه سِفْر إشعياء النبيّ، «وَلَمَّا فَتَحَ السِّفْرَ وَجَدَ الْمَوضِعَ الَّذِي كَانَ مَكْتُوباً فِيهِ: «رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنكَسِرِي الْقُلُوبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ، وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ». ثُمَّ طَوَى السِّفْرَ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْخَادِمِ وَجَلَسَ. وَجَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجمَعِ كَانَتْ عُيُونُهُمْ شَاخِصَةً إِلَيْهِ. فَابْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهُ الْيَوْمَ قَدْ تَمَّ هذَا الْمَكْتُوبُ فِي مَسَامِعِكُمْ» (لو٤: ١٦-٢٠).

ونُلاحِظ جليًّا عند مقارنة النبوءة التي قالها إشعياء النبيّ، مع ما قرأه الرَّبّ من نفس النبوءة، أنَّ الرَّبّ ذَكَرَ: «وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ»، ولم **يُكمِل** ما جاء بعد ذلك في النبوءة، أي: «**وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلهِنَا**».

فالآية: «وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ»، إنما تُشير إلى المجيء الأول للرَّبّ في الجسد فاديًا ومُخلِّصًا لجنس البشر. فقد أتى الرَّبّ في مجيئه الأول متواضعًا، فهو «إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ صَائِراً فِي شِبْهِ

النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ» (في ٢: ٦-٨).

لقد تجسَّد ابن الله وصار في الهيئة كإنسان لكي يُتمِّم تدبير الخلاص، ولكي «**يُبشِّر المساكين، ويَعصب المنكسري القلوب، ويُنادي للمسبيِّين بالعِتْق، وللمأسورين بالإطلاق، ويُعزِّي كل النائحين**». هذه هي «**سنة الرَّبّ المقبولة**»، أو «**زمن الخلاص**». ونحن ما زلنا حتى الآن في إطار «**سنة الرَّبّ المقبولة**»، طالما نحن ما نزال أحياء حتى هذه السَّاعة. وهذا من مراحم الرَّبّ وجُوده وصلاحه. فكلُّ مَن **يؤمن ويعتمد**، يدخل في **زمن الخلاص**؛ وهكذا كلُّ مَن يتوب عن ذنوبه ويرجع إلى الرَّبّ بكلِّ قلبه، يُقْبَل في سنة الرَّبّ المقبولة.

فالفرصة ما تزال سانحةً لكلِّ إنسان أن يدخل في «**سنة الرَّبّ المقبولة**» ما دام يحيا على هذه الأرض، فقد «ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللهِ الْمُخَلِّصَةُ لِجَمِيعِ النَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ نُنْكِرَ الْفُجُورَ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِالتَّعَقُّلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي الْعَالَمِ الْحَاضِرِ، مُنْتَظِرِينَ الرَّجَاءَ الْمُبَارَكَ وَظُهُورَ مَجْدِ اللهِ الْعَظِيمِ وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، لِكَيْ يَفْدِيَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَيُطَهِّرَ لِنَفْسِهِ شَعْباً خَاصًّا غَيُوراً فِي أَعْمَالٍ حَسَنَةٍ» (تيطس ٢: ١١-١٤).

أَمَّا ما ذَكَره إشعياء النبيّ في نبوءته: «وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلهِنَا»، وهو ما لم يذكُره الرَّبّ يسوع عندما قرأ نبوءة إشعياء النبيّ في المجمع؛ فهذا سيكون في مجيء الرَّبّ الثاني المخوف المملوء مجدًا، عند استعلانه «مِنَ السَّمَاءِ مَعَ مَلاَئِكَةِ قُوَّتِهِ، فِي نَارِ لَهِيبٍ، مُعْطِياً نَقْمَةً لِلَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ اللهَ، وَالَّذِينَ لاَ يُطِيعُونَ إِنْجِيلَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِينَ سَيُعَاقَبُونَ بِهَلاَكٍ أَبَدِيٍّ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ وَمِنْ مَجْدِ قُوَّتِهِ، مَتَى جَاءَ لِيَتَمَجَّدَ فِي قِدِّيسِيهِ وَيُتَعَجَّبَ مِنْهُ فِي جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ» (٢تس ١: ٧-١٠).

فهناك «تدبير الخلاص»، الذي استُعْلِنَ في المجيء الأول لابن الله متجسِّدًا، وهذا ما تشمله الآية: «وَأَكْرِز بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ». وهناك «تدبير الدينونة» في المجيء الثاني لابن الله في نهاية الدهور، بعد أن تُستَكمَل أزمنة الخلاص وتصل إلى مِلْئها الذي يعرف موعده ويُحدِّده الله بحسب عِلْمه السَّابق ومشورته الأزليَّة. وحينئذ، كما يقول بولس الرسول، فإنَّ «الضِّيقَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُونَهَا، بَيِّنَةً عَلَى قَضَاءِ اللهِ الْعَادِلِ، أَنَّكُمْ تُؤَهَّلُونَ لِمَلَكُوتِ اللهِ الَّذِي لأَجْلِهِ تَتَأَلَّمُونَ أَيْضاً. إِذْ هُوَ عَادِلٌ عِنْدَ اللهِ أَنَّ الَّذِينَ يُضَايِقُونَكُمْ يُجَازِيهِمْ ضِيقاً، وَإِيَّاكُمُ الَّذِينَ تَتَضَايَقُونَ رَاحَةً مَعَنَا، عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ الرَّبِّ يَسُوعَ» (٢ تس ١: ٤-٧).

فالشُّكر والحمد لإلهنا الصالح، أنَّنا والعالم أجمع ما نزال في «زمن الخلاص»، أو في «سنة الرَّبّ المقبولة». والرَّبّ يُعطي الفرصة تلو الأخرى، بطول أناته، لكلِّ إنسانٍ على وجه الأرض، حتى يُقبِل إلى الرَّبّ ويتمتَّع بخلاصه الثمين، إنْ آمن واعتمد وقَبِلَ ثمار الخلاص التي وهبها الرَّبّ للبشرية كنتيجة **لتجسُّده وصَلْبه وموته وقيامته من بين الأموات وصعوده إلى السموات**، ثم حلول الرُّوح القُدُس الذي ينقل ثمار الخلاص إلى كلِّ إنسان يؤمن ويعتمد على اسم الثَّالوث القُدوس ويشترك في جسد الرَّبِّ ودمه الكريم.

وفي شرحه لـ «سنة الرَّبّ المقبولة»، يقول **القديس كيرلُّس الكبير**:

﴿وما معنى «الكرازة بسنة الرَّبِّ المقبولة»؟ إنها تُشير إلى الأخبار المُفرحة عن مجيئه (الأول)، أي أنَّ الابن قد جاء (متجسِّدًا). فتلك كانت هي «السنة المقبولة»، التي فيها صُلِبَ المسيح لأجلنا، لأنَّنا عندئذ صرنا مقبولين عند الآب كثمارٍ حملها المسيح. لذلك فقد قال هو نفسه: «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» (يو ١٢: ٣٢). وحقًّا فقد عاد إلى الحياة في اليوم الثالث حينما داس على قوَّة الموت، وبعد ذلك قال لتلاميذه: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ» (مت ٢٨: ١٨).

أيضًا من كلِّ ناحيةٍ، هي سنةٌ مقبولة، التي فيها، إذ قد انضممنا إلى عائلته؛ فقد دخلنا إليه بعد أن اغتسلنا من الخطيّة بالمعموديَّة المقدَّسة، وصرنا شركاء في طبيعته الإلهية بواسطة شركة الرُّوح القُدُس.

تلك أيضًا هي سنةٌ مقبولة، إذ أَظْهَرَ فيها مجده بمعجزاتٍ تفوق الوصف، ونحن قد استقبلنا زمن خلاصه بفرحٍ عظيم، وهو الزمن الذي يُشير إليه بولس الحكيم قائلًا: «هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ» (٢كو ٦: ٢). وهو اليوم الذي فيه صار أولئك المساكين الذين كانوا سابقًا مرضى بسبب انعدام كلِّ بركة، والذين لم يكن لهم رجاء، وكانوا بلا إله في العالم – أي شعوب الأُمم – هؤلاء المساكين صاروا أغنياء بالإيمان به، إذ حصلوا على الكنز الإلهي السَّماوي، كنز رسالة إنجيل الخلاص، الذي به جُعِلوا شركاء في ملكوت السموات، وصاروا مُشاركين مع القدِّيسين، ووارثين البركات التي لا يستطيع عقلٌ أن يُدركها ولا لسانٌ أن يُخْبِر عنها. لأنه مكتوبٌ: «مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ» (١كو٢: ٩). وهذا الكلام يمكن أن ينطبق أيضًا على فيض النِّعَم السخِيَّة المُعطاة من المسيح والمُنسكبة منه على المساكين بالرُّوح...

وأخيرًا، (فالربُّ يسوع) هو الذي كَرَزَ بـ «سَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ»، تلك التي فيها جاء المخلِّص كارزًا. فإني أَظُنُّ أن المقصود بالسَّنة المقبولة، هو مجيئه الأول؛ أمَّا المقصود بيوم العودة، فالمقصود به يوم الدينونة﴾ (١).

«اليوم قد تمَّ هذا المكتوب في مسامعكم»:

وكما تكلَّمنا عن «سَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ» باعتبارها هي زمن الخلاص الذي تجسَّد ابن الله لكي يُتمِّمه؛ فكذلك كلمة الرَّبّ: «اليوم قد تمَّ...»، فهي تُشير إلى يوم الخلاص: «فِي وَقْتٍ مَقْبُولٍ سَمِعْتُكَ، وَفِي يَوْمِ خَلاَصٍ أَعَنْتُكَ. هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ» (٢كو ٦: ٢).

نُكرِّر ما قاله بولس الرسول: «هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ»، فليكُن يوم خلاصنا ماثلًا نُصب أعيُننا، حتى لا نُسوِّف العمر باطلًا، بل «يَجِبُ أَنْ نَتَنَبَّهَ أَكْثَرَ إِلَى مَا سَمِعْنَا لِئَلاَّ نَفُوتَهُ... فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلاَصاً هذَا مِقْدَارُهُ؟» (عب

١: ١، ٣). فـ «الآن وقتٌ مَقْبُولٌ»، فمَن يُقْبِلُ إلى الرَّبِّ لا يُخرجه خارجًا، بل يَهَبُهُ كل بركات وثمار الخلاص، ولذلك يقول بولس الرسول: «اسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ وَقُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ فَيُضِيءَ لَكَ الْمَسِيحُ. فَانْظُرُوا كَيْفَ تَسْلُكُونَ بِالتَّدْقِيقِ، لاَ كَجُهَلاَءَ بَلْ كَحُكَمَاءَ، مُفْتَدِينَ الْوَقْتَ لأَنَّ الأَيَّامَ شِرِّيرَةٌ» (أف ٥: ١٤-١٦).

وفي هذا يقول القديس كيرلُّس الكبير:

﴿حينما قرأ الرَّبّ هذه الكلمات (أي نبوءة إشعياء النبيّ) للشَّعبِ المجتمع، فإنه جذب أنظارهم إليه، إذ كانوا ربما مُندهشين: كيف يعرف الكُتُب وهو لم يتعلَّم؟... ولكن لكي لا يُسيئوا فَهْم هذه النبوَّة أيضًا، لذلك نراه يحرص على تنبيههم للخطأ بقوله: «إِنَّهُ الْيَوْمَ قَدْ تَمَّ هذَا الْمَكْتُوبُ فِي مَسَامِعِكُمْ»، واضعًا نفسه أمامهم بوضوح بهذه الكلمات، باعتباره الشَّخص الذي تتكلَّم عنه النبوَّة، لأنه هو الذي كَرَزَ بملكوت السموات للأُمم، الذين كانوا مساكين، إذ لم يكن لهم شيء... أو بالحريّ لقد كَرَزَ بالملكوت لكلِّ الذين كانوا محرومين من كنوز الغِنَى الرُّوحي ... وقد أفاض النُّور الإلهي الرُّوحي على الذين كانوا مُظْلمي القلب... إنَّهُ هو نفسه الذي حلَّ سلاسل الخطيَّة عن أولئك الذين سحقتهم الخطيَّة، والذي أَظْهَرَ بوضوح أنَّ هناك حياةً آتيةً﴾ (٢).

(١) «تفسير إنجيل لوقا»، للقديس كيرلس الإسكندري، ٤: ١٩.

(٢) «تفسير إنجيل لوقا»، ٤: ٢١.

† «بَعْدَ قَلِيل لاَ تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيل أَيْضًا تَرَوْنَنِي، لأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ» (يو ١٦: ١٦).

ما هو هذا القليل(١)؟

منذ قليل قال المسيح لتلاميذه إنَّهُ سيكشف لهم بروحِهِ القُدُّوس كُلَّ الأمور الضروريَّة والمُفيدة لهم. والآن ها هوذا يُخبرهم أيضًا عن آلامه الطَّوعِيَّة، ثم يأتي بعد ذلك صعوده إلى السَّماء الذي سيتبعه ذلك الحلول الضروري للرُّوح القُدُس. وإذ يرجع إلى الآب، فلن يكون هناك أيُّ حديث مُتبادَل – بالجسد – بينه وبين تلاميذه القدِّيسين.

إنَّهُ يستخدم كلماتٍ قليلة لكي يُقلِّل من شدَّة حُزنهم، لأنَّهُ عَلِمَ أنَّ تلاميذه سيُواجهون مخاوف ليست هيِّنة، وأنهم كانوا على وشك أن يُمتَحَنوا بأقسى أنواع الحزن النافذ إلى الأعماق: بقاؤه في قبرٍ مُخيف، وشرور غير مُحتَمَلة ستُحْدِق بهم، ثم صعود المُخلِّص إلى أبيه في السَّماء تاركًا إيَّاهم منفردين.

وعلى ما أعتقد هذا هو السَّبب أنَّهُ لم يَقُل لهم علانيةً إنَّهُ على وشك أن يموت، وإنَّ غضب اليهود الشَّديد كان موشِكًا أن يُنهي على حياته. ولكنه بكلِّ لُطفٍ مَزَجَ كلماته بكثير مِنَ الرِّقَّة، وأَظْهَر لهم أنَّ مُعاناته الآلام سيتبعها سريعًا الفرح بقيامته، لذلك قال لهم: «بَعْدَ قَلِيل لاَ تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيل أَيْضًا تَرَوْنَنِي»، لأن وقت موته كان حينئذ قد اقترب. وهكذا – بحسب نبوَّة الرَّبّ – سيُؤخَذ الرَّبّ من أمام عيون تلاميذه، ولكن لوقتٍ قليل بالتأكيد، أي إلى أنْ يُحطِّم قوَّة الجحيم، ويفتح أبواب الظُّلمة ليُخْرِج الذين سكنوا هناك، ثم يُقيم هيكله (أي جسده) مرَّةً ثانية (يو ٢: ١٩).

وهذا ما تمَّ بالفعل، ولمَّا ظهر لتلاميذه مرَّةً أخرى، وَعَدَهم أنَّهُ سيبقى معهم كُلّ أيَّام هذا الدَّهر كما هو مكتوبٌ في (مت ٢٨: ٢٠).

لأنه رغم أنَّهُ سيكون غائبًا بالجسد، إلَّا أنَّ وجوده أمام الآب من أجلنا وجلوسه عن يمين أبيه، معناه أنَّهُ يسكن في الأبرار من خلال رُوحه القُدُّوس، ويظلُّ هكذا واحدًا مع قدِّيسيه إلى الأبد، لأنه وَعَدَ أنَّهُ لَنْ يتركهم يتامَى (يو ١٤: ١٨).

لقد تبقَّى القليل حتى يحين وقت آلامه. إنَّهُ يقول: «بَعْدَ قَلِيل لاَ تُبْصِرُونَنِي»، لأنَّهُ سوف يختفي لوقتٍ قليل بالموت. ثم يقول: «ثُمَّ بَعْدَ قَلِيل أَيْضًا تَرَوْنَنِي»، لأنَّهُ سيقوم خلال ثلاثة أيام فيها «كَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السِّجْنِ» (١بط ٣: ١٩). لأنَّهُ بهذه الطريقة جسَّدَ كمال حُبِّه للبشر، إذ أنَّهُ خلَّص ليس فقط الساكنين على الأرض، ولكنه نزل ليُبشِّر بالحريَّة للذين عَبَروا هذه الحياة، وكانوا جالسين في الظلمة وفي أعماق الجحيم (انظر لو ١: ٧٩).

«حزنكم سيتحوَّل إلى فرح»:

لاحِظ أيضًا بأيَّة طريقة يتكلَّم عن آلامه وعن قيامته: «بَعْدَ قَلِيل لاَ تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيل أَيْضًا تَرَوْنَنِي»، ولكنه يُضيف: «لأَنِّي

ذاهبٌ إلى الآب». لقد صَمَتَ بخصوص الباقي كلّه، لأنَّهُ لا يُشير إلى طول الوقت الذي سيبقى فيه هناك، أو متى سيرجع، أو لأيِّ سبب؟ لأنه – طِبقًا لكلمات المخلِّص نفسه – ليس لنا أنْ نعرف «الأَزْمِنَةَ وَالأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الآبُ فِي سُلْطَانِهِ» (أع ١: ٧).

✝ «فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَا هُوَ هذَا الَّذِي يَقُولُهُ لَنَا: بَعْدَ قَلِيل لاَ تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيل أَيْضًا تَرَوْنَنِي، وَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ؟». فقالوا: «مَا هُوَ هذَا الْقَلِيلُ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ؟ لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ!» (يو ١٦: ١٧،١٨).

﴿إنَّ الرُّسل المُختارين بطريقةٍ إلهيَّة، يتساءلون فيما بينهم عن معاني هذه الكلمات، ثُمَّ ها هُم يشُكُّون في كلامه. ولكن المسيح سبق تلهُّفهم على سؤاله بأن أَظْهَرَ لهم مرَّة أخرى أنَّهُ كإله يعرف قلوبهم وما يدورُ فيها؛ بل وحتى ما في أعماق نفوسهم وكأنَّهم عبَّروا عنه بألسنتهم. لأني أسأل ما الذي يمكن أنْ يُخْفَى عن ذاك الذي كُلُّ شيء عُريان ومكشوف أمامه (عب ٤: ١٣)؟ كما يقول أيضًا على فم واحدٍ من قدِّيسيه: «فمَن ذا الذي يُخْفي القصد عنك؟ أو مَن الذي يكتم كلماته ويظنُّ أنَّهُ يُخفيها عنك؟ ومَن يُخبرني بما لا أعرفه، بأمور عظيمة وعجيبة لا أفهمها؟» (أي ٤٢: ٣ – حسب الترجمة السبعينية). حقّاً إنَّهُ يُساعدهم بكلِّ وسيلة، ويضع أمامهم الفرصة جاعلًا نفسه المؤسِّس لإيمانٍ ثابت لا يتذبذب.﴾

✝ «فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَعَنْ هذَا تَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، لأَنِّي قُلْتُ: بَعْدَ قَلِيل لاَ تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيل أَيْضًا تَرَوْنَنِي.؟ اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ، وَلكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَح.» (يو ١٦: ١٩،٢٠).

﴿استجابةً لِشَغَفِهِم أنْ يعرفوا ما تعنيه كلمات المُخلِّص، فهو يتكلَّم بأكثر علانية عن آلامه وعمَّا هو مزمع أنْ يتحمَّله، ويَهَب لهم أنْ يعرفوا كُلَّ هذا مُسْبقًا وبطريقةٍ نافعة لنفوسهم. ولم يكن هذا لكي يُصيبهم بأسى سابق لأوانه، ولكن لكي بهذه المعرفة يُعِدُّهم ويُشدِّدُهُمْ ضِدَّ الخوف الذي لابُدَّ أنَّهُ سيُهاجمهم، لأنَّ حلول التجربة المتوقَّع أهون في قسوته بكثير مِمَّا لو كان غير متوقَّع بالكلِّيَّة.﴾

﴿وعلى ذلك فعندما تَرَوْنَ أيُّها التلاميذ الحقيقيُّون الأحبَّاء سيِّدكم وربكم صابرًا على الضربات والشَّتائم مِنَ اليهود القُساة القُلوب، فستبكون وتنوحون، ولكن العالم سيفرح. والمقصود بالعالم أولئك الذين لا تعنيهم الأمور التي تُرضي الله، بل التي تُشبع رغبات هذا العالم.﴾

﴿هنا أيضًا يُلفت الرَّبّ نظرنا إلى أنَّ عامة اليهود، وجماعة الرؤساء غير الأتقياء وهم الكهنة والفرِّيسيون، إذ يشتعلون بالحقْدِ على المُخلِّص سيسخرون منه قائلين: «يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ!» (مت ٢٧: ٤٠)، لأنَّ هذه كانت تعبيرات قاسية آتية مِنْ أفواه اليهود.﴾

﴿ولكن بينما سيفعل الدنيويُّون ويقولون مثل هذا، (كأنَّ) الرَّبَّ يقول لتلاميذه: «إنكم ستحزنون، ولكنكم لَنْ تقاسوا هكذا طويلًا، لأنَّ حزنكم سيتحوَّل إلى فرح. إنَّني سأنهض ثانيةً وسأنزع كل سبب للحزنِ، وسأضع حدًّا لدموعكم، وأدعوكم لفرحٍ لانهائي في داخل النَّفس، لأنَّ فرح المُطوَّبين هو بلا نهاية». ولأن المسيح يحيا إلى الأبد، ففي المسيح فَقَدَ الموت فاعِلِيَّتُهُ لكلِّ الناس.﴾

﴿ولكن جيِّد أن نحفظ في فكرنا أنَّ الناس الدنيويِّين بدورهم سيظلُّون في عذابٍ إلى الأبد، لأنَّهُ إنْ كان بسبب المسيح المائت بالجسد قد امتلأ تلاميذه بالحزن، فإنَّ ما سبَّب حزنهم هو نفسه ما سبَّب فرح العالم؛ بل منذ أنْ غُلِبَ الموت والفساد ونهض مُخلِّصنا مِنَ الموت، فقد صار الأمر كذلك: فإنَّ نَوْحَ الأبرار يتحوَّل إلى فرح، أما فرح الدنيويِّين فيتحوَّل إلى حزن﴾.

«لا ينزع أحدٌ فرحكم منكم»:

✝ «اَلْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ، وَلكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ، لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ. فَأَنْتُمْ كَذلِكَ، عِنْدَكُمُ الآنَ حُزْنٌ. وَلكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضًا فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ، وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ.» (يو ١٦: ٢١،٢٢).

﴿إنَّ الرَّبَّ يفيض على تلاميذه تعزيةً، ويُشبعهم بأحاديثه المتعدِّدة بوسائل تحُدُّ مِنْ شِدَّة حزنهم. فانظر هنا كيف يُشجِّعهم بمثالٍ طبيعي جدًّا (ساعة ولادة المرأة) أنْ يتحمَّلوا كل شيء بشجاعة، وأنْ لا يخوروا مِنَ الآلام أو الأحزان، لأنَّ هذه كلّها ستتحوَّل إلى فرح. لأنَّهُ – كما يقول – فإنَّ الثمرة التي ستتولَّد عن غُصَّة الآلام الحادة المُفاجئة هي طفلٌ مولودٌ جديد. وبدون آلام الولادة لا يمكن للأُمهات أنْ يحصُلْنَ على أطفال؛ وإذا رفضن تحمُّل هذه المُنغِّصات، فلن يصِرْنَ أُمهات إطلاقًا. فالجُبن يؤدِّي إلى خسارة أيَّة ملكية مُشتهاة.﴾

﴿لأجل هذا السبب عَيْنِهِ، فإنَّ آلامكم لَنْ تكون بدون مكافأة، لأنَّكم ستفرحون عندما تَرَوْنَ الضيف العجيب يُولد كطفلٍ في العالم، غير قابلٍ للفساد أو الهلاك. إنَّهُ طبعًا يتكلَّم عن نفسه، لأنَّهُ يقول إنَّ الأبدية وعدم القابليَّة للهلاك ستكونان هما فرحنا فيه، لأنَّهُ حسب صوت بولس الرسول أو حسب صوت الحقِّ ذاته: «لاَ يَسُودُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَعْدُ. لأَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي مَاتَهُ قَدْ مَاتَهُ لِلْخَطِيَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً» (رو ٦: ٩،١٠)﴾

﴿حسب كلمات مُخلِّصنا: لن ينتزع أيُّ إنسانٍ الفرح من الإنسان القدِّيس، ولكن انتُزِع بشدَّة من الذين سمَّروه على الصليب. وفي حين أنَّ آلامه قد انتهت، فهُم ينبغي حتمًا أن يُقاسوا مِنْ حزن لانهائي، هؤلاء الذين اعتقدوا أنَّهم بسبب آلام المسيح سيكونون سُعداء.)

(ولكن الفرح الذي يأتي إلينا مِنَ الرَّبِّ سيدوم معنا بلا نهاية؛ لأنَّهُ إذا كان موت المسيح قد جلب لنا الحزن، فمَن ينزع فرحنا منَّا نحن الذين نَعْلَم أنَّهُ الآن حيٌّ وسيظلُّ إلى الأبد رئيسًا وواهبًا لأمورنا الرُّوحيَّة السامِيَة!﴾

(١) من تفسير القديس كيرلُّس الكبير على إنجيل يوحنا ١٦: ١٦-٢٢.

«فَرَأَى أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ، وَتَحَيَّرَ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ شَفِيعٌ. فَخَلَّصَتْ ذِرَاعُهُ لِنَفْسِهِ، وَبِرُّهُ هُوَ عَضَدَهُ. فَلَبِسَ الْبِرَّ كَدِرْعٍ، وَخُوذَةَ الْخَلاَصِ عَلَى رَأْسِهِ. وَلَبِسَ ثِيَابَ الانْتِقَامِ كَلِبَاسٍ، وَاكْتَسَى بِالْغَيْرَةِ كَرِدَاءٍ.» (إش ٥٩: ١٦،١٧).

عَمَّن كان يتكلَّم **النبي إشعياء**؟ وماذا كان يرى من آلاف السنين؟ وعَمَّن كان يتنبَّأ ناطقًا بتلك الكلمات: «يُعْطِيكُمُ السَّيِّد (الرَّبّ) نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ». (إش ٧: ١٤)؟ وعَمَّن كان يُشير نفس **النبيّ** بقوله: «هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ... لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ.» (إش٤٢: ١-٤)؟ وأيضًا قوله: «أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ، لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ.» (إش ٤٢: ٦-٧)؟

أليس هو نفسه الذي تنبَّأ عنه **النبيّ** أيضًا قائلًا: «أَمَّا الرَّبُّ فَسُرَّ بِأَنْ يَسْحَقَهُ بِالْحَزَنِ. إِنْ جَعَلَ نَفْسَهُ ذَبِيحَةَ إِثْمٍ يَرَى نَسْلاً تَطُولُ أَيَّامُهُ، وَمَسَرَّةُ الرَّبِّ بِيَدِهِ تَنْجَحُ. مِنْ تَعَبِ نَفْسِهِ يَرَى وَيَشْبَعُ، وَعَبْدِي الْبَارُّ بِمَعْرِفَتِهِ يُبَرِّرُ كَثِيرِينَ، وَآثَامُهُمْ هُوَ يَحْمِلُهَا. لِذلِكَ أَقْسِمُ لَهُ بَيْنَ الأَعِزَّاءِ وَمَعَ الْعُظَمَاءِ يَقْسِمُ غَنِيمَةً، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ، وَهُوَ حَمَلَ خَطِيَّةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ.» (إش ٥٣: ١٠-١٢)؟

وأخيرًا، مَن يكون **هذا الشَّخص العجيب** الذي تنبَّأ عنه **النبي إشعياء** أيضًا قائلًا: «فَرَأَى أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانًا، وَتَحَيَّرَ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ شَفِيعًا. فَخَلَّصَتْ ذِرَاعُهُ لِنَفْسِهِ، وَبِرُّهُ هُوَ عَضَدَهُ. فَلَبِسَ الْبِرَّ كَدِرْعٍ، وَخُوذَةَ الْخَلاَصِ عَلَى رَأْسِهِ. وَلَبِسَ ثِيَابَ الانْتِقَامِ كَلِبَاسٍ، وَاكْتَسَى بِالْغَيْرَةِ كَرِدَاءٍ.» (إش ٥٩: ١٦،١٧)؟!

واضحٌ أنَّهُ نفس الشَّخص الذي تنبَّأ عنه **النبيّ** من أوائل السِّفْر إلى آخره:

«يُعطيكم السَّيِّد (الرَّبّ) نَفْسُه آيةً»:

فالرَّبُّ نفسُه هو «الآية»: «هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ (الذي تفسيره «**الله معنا**»)». هذا وَعْدٌ من الله أنَّهُ يجعل نفسه آيةً، وهي **ولادته من عذراء**.

وفي هذا يقول **القديس إيرينيئوس**:

﴿كيف كان للإنسان أنْ يذهب إلى الله، لو لم يكن الله قد جاء أولًا

إلى الإنسان؟ وكيف كان يمكن للبشر أنْ ينعتقوا مِنْ ميلادهم الأول **المؤدِّي إلى الموت**، لو لم يولَدوا من جديد بالإيمان بذلك الميلاد الجديد الإعجازي المُعْطَى من **الله** كآية للخلاص («**يُعطيكم السيِّد نفسُه آيةً**»)، أعني الميلاد الذي صار من **العذراء**؟ بل، وكيف كان يمكن أن ينالوا التبنِّي **للهِ** وهم باقون في ميلادهم الأوَّل الذي بحسب البشر في هذا العالم؟... من أجل ذلك صار **الكلمة** إنسانًا، وصار **ابن الله** ابنًا للإنسان؛ لكي يتَّحد الإنسان **بالكلمة**، فينال التبنِّي ويصير **ابنًا لله** (١).

ويُكرِّر إشعياء النبيّ وَعْد الله بأنْ يكون هو نفسُه آيةً، بقوله في الأصحاح التاسع: «لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ. لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ. غَيْرَةُ رَبِّ الْجُنُودِ تَصْنَعُ هذَا.» (إش٩:٦-٧).

ويُمكننا أنْ نستخلص مِنْ هذين الوَعْدَيْنِ حقيقة ذلك الولد:

«لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ»: أي مولود البشريَّة كلها، وهو ابن الإنسان، لأنه يقول: «ونُعطَى ابنًا».

«وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ»: أي أنَّهُ مولود ليكون رئيسًا.

«وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا»: وهذا هو ما قاله ملاك الرَّبّ لمَنُوح والد شمشون الذي سارَ وراء امرأته، عندما سأله عن اسمه، فأجابه: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي وَهُوَ عَجِيبٌ؟» (قض ١٣:١٨). كما جاء أيضًا في المزمور (١١٧) عن الحجر الذي صار رأسًا للزَّاوية في قوله: «الحجر الذي رذله البنَّاؤون صار رأسًا للزاوية. مِن قِبَل الرَّبّ صارت هذه، وهي عجيبةٌ في أعيننا» (مز ١١٧: ٢٢،٢٣). وقد ذَكَرَ الرَّبّ يسوع هذه الآية **لرؤساء الكهنة والفرِّيسيين**، مُشيرًا إلى نفسه بقوله: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ.» (مت٢١:٤٢-٤٣).

«مُشِيرًا»: جاءت في الأصحاح ١١ من نفس السِّفْر في قوله: «وَيَخْرُجُ قَضِيبٌ مِنْ جِذْعِ يَسَّى، وَيَنْبُتُ غُصْنٌ مِنْ أُصُولِهِ، وَيَحُلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ، رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ، رُوحُ الْمَعْرِفَةِ وَمَخَافَةِ الرَّبِّ.» (إش١١:١-٢)، إشارة إلى مجيئه من سِبْط يهوذا.

«إِلهًا قَدِيرًا»: وهو نفسه الإله القدير الذي أَعلن عن نفسه لأبينا إبراهيم، قائلًا: «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً» (تك ١٧: ١). وهو الذي دُعِيَ مرارًا بهذا الاسم في **سِفْر المزامير**: «الرَّبّ القدير الجبَّار» (مز ٢٣:٨).

أمَّا في **سِفْر إشعياء**، فهو يكشف عن شخص الرَّبّ بتعبيرات مُتعدِّدة مألوفة في العهد الجديد، تُعلِن عن شخص الابن الكلمة، فيقول: «أَنَا الرَّبُّ الأَوَّلُ، وَمَعَ الآخِرِينَ أَنَا هُوَ» (إش٤١:٤). «أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ، لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ.» (إش٤٢: ٦،٧). «أَنَا أَنَا الرَّبُّ، وَلَيْسَ غَيْرِي مُخَلِّصٌ.(يسوع)» (إش٤٣: ١١). كما جاء في الإنجيل: «فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ» (مت ١:٢١). ويستطرد **سِفْر إشعياء**: «أَنْتُمْ شُهُودِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَعَبْدِي الَّذِي اخْتَرْتُهُ، لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا بِي وَتَفْهَمُوا أَنِّي أَنَا هُوَ. قَبْلِي لَمْ يُصَوَّرْ إِلهٌ وَبَعْدِي لاَ يَكُونُ.» (إش٤٣:١٠-١١)، «أَنَا الرَّبُّ هذَا اسْمِي، وَمَجْدِي لاَ أُعْطِيهِ لآخَرَ» (إش ٤٢:٨).

«أَبًا أَبَدِيًّا»: لأن الرَّبّ يسوع هو الكاهن إلى الأبد على رُتبة ملكي صادق، لذلك «وَإِذْ كُمِّلَ صَارَ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ، سَبَبَ خَلاَصٍ أَبَدِيٍّ» (عب ٥:٩).

«رَئِيسَ السَّلاَمِ»: ومَنْ يمكن أنْ يُدعَى رئيسًا غير الذي قال: «سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا.» (يو١٤:٢٧). كما قال **بولس الرسول**: «لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِدًا، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ أَيِ الْعَدَاوَةَ. مُبْطِلاً بِجَسَدِهِ نَامُوسَ الْوَصَايَا فِي فَرَائِضَ، لِكَيْ يَخْلُقَ الاثْنَيْنِ فِي نَفْسِهِ إِنْسَانًا وَاحِدًا جَدِيدًا، صَانِعًا سَلاَمًا،» (أف٢:١٤-١٥). وهو الذي عند ميلاده هلَّلت الملائكة قائلة: «الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ» (لو ٢:١٤).

«لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ.»: وهذا يُذكِّرنا بقول الملاك جبرائيل **لوالدة الإله القديسة العذراء مريم** عندما بشَّرها بميلاد الرَّبّ يسوع قائلًا: «وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ.» (لو ١: ٣١-٣٣).

«غَيْرَةُ رَبِّ الْجُنُودِ تَصْنَعُ هذَا.»: إنَّ غيرة رَبِّ الجنود هي التي جعلته ينزل مِنَ السَّماء ويترك مجده، ويتجسَّد ويصير في الهيئة كإنسان، لكي يُخلِّص الإنسان مِنَ الخطيَّة، كقول إشعياء النبيّ: «فَرَأَى أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ، وَتَحَيَّرَ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ شَفِيعٌ. فَخَلَّصَتْ ذِرَاعُهُ لِنَفْسِهِ، وَبِرُّهُ هُوَ عَضَدَهُ. فَلَبِسَ الْبِرَّ كَدِرْعٍ، وَخُوذَةَ الْخَلاَصِ عَلَى رَأْسِهِ. وَلَبِسَ ثِيَابَ الانْتِقَامِ كَلِبَاسٍ (**ضد إبليس عدو الخير**)، وَاكْتَسَى بِالْغَيْرَةِ كَرِدَاءٍ» (إش ٥٩: ١٦،١٧). فقد جاء في **سِفْر التثنية**: «لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ هُوَ نَارٌ آكِلَةٌ، إِلهٌ غَيُورٌ.» (تث٤:٢٤)، وأيضًا في **سِفْر المزامير**: «لأَنَّ غَيْرَةَ بَيْتِكَ أَكَلَتْنِي» (مز٦٩:٩). وهذا ما تَذَكَّره التلاميذ حينما رأوا الرَّبّ يسوع يغار على الهيكل، فيطرد منه الذين كانوا يبيعون بقرًا وغنمًا وحمامًا، قائلاً لهم: «ارْفَعُوا هذِهِ مِنْ هُهُنَا! لاَ تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ!». (يو٢:١٦).

«هَلْ قَصَرَتْ يَدِي عَنِ الْفِدَاءِ؟ وَهَلْ لَيْسَ فِيَّ قُدْرَةٌ لِلإِنْقَاذِ؟» (إش ٥٠: ٢)؟

يتساءل الرَّبُّ مُتعجِّبًا عن سبب **عجز** الإنسان **وعدم قدرته** على الانتفاع بقدرة الرَّبِّ الفادية والمُخلِّصة! فهل هذا بسبب أنَّ يد الرَّبّ قد قَصَرَتْ عن أن تُخلِّص؟! أم لأنَّنا لم نتضع وننسحق أمامه، ونصرخ مِنْ أعماق قلوبنا ونطلبه واثقين مِنْ استجابته وقدرته على إنقاذنا وفدائنا، وتجديد طبيعتنا بتجسُّده آخِذًا طبيعتنا؟!

ولكن الرَّبّ دبَّرَ منذ الأزل أنْ يُخلِّص البشريَّة بنفسِهِ مُقدِّمًا **نفسه آية**. فهو الذي رَسَمَ لنا خطة خلاصٍ مُحكمة تجعل الإنسان قادرًا على الثبات في الله والله فيه.

وفي هذا يقول **القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات**، في القدَّاس الغريغوري:

﴿وعندما سقط (الإنسان) بغواية العَدُوّ ومُخالفة وصيتك المُقدَّسة، وأردتَ أنْ تُجدِّده وتردَّه إلى رُتبته الأولى. لا ملاك ولا رئيس ملائكةٍ ولا رئيس آباء ولا نبي إئتمنته على خلاصنا؛ بل أنت بغير استحالةٍ تجسَّدتَ وتأنَّست، وأشبهتنا في كلِّ شيء ما خلا الخطيَّة وحدها. وصرتَ لنا وسيطًا مع الآب، والحاجز المتوسط نقضته، والعداوة القديمة هدمتها. وأصلحتَ الأرضيين مع السمائيين، وجعلتَ الاثنين واحدًا، وأكملتَ التدبيرَ بالجسد. وعند صعودك إلى السموات جسديًّا ، إذ ملأتَ الكلَّ بلاهوتك...﴾.

وفي هذا يقول أيضًا **القديس أثناسيوس الكبير**:

﴿ هذه هي محبة الله للبشر، أنَّ الذين هم أصلًا مجرَّد خلائق وهو خالقهم، قد صار لهم فيما بعد أبًا بحسب النعمة. وهذا يتحقَّق كلَّما قَبِلَ البشر المخلوقون (هذه النعمة)، كما يقول الرسول: «روح ابنه في قلوبهم صارخًا: يا أَبَا، الآب» (غل٤: ٦). هؤلاء هم الذين قَبِلوا اللوغس (الكلمة)، فأخذوا منه «سُلطانًا أن يصيروا أولاد الله» (يو ١: ١٢). فإنَّهُ لم يكن مُمكنًا بوسيلة أخرى أن يصيروا أبناء الله، بينما هم بحسب الطبيعة مُجرَّد خلائق، إلَّا إذا قبلوا رُوح الابن الحقيقيّ، الذي هو ابنٌ بحسب الطبيعة. وبالتالي، لكي يتحقَّق ذلك، صار الكلمة جسدًا، لكي يجعل الإنسان قادرًا أن يستقبل اللاهوت... حتى يظهر مِنْ ذلك أنَّنا لسنا نحن أبناء الله بحسب الطبيعة؛ بل هذا يخصُّ ابن الله الذي فينا. وبالمثل أيضًا الله الآب ليس أبًا لنا بحسب الطبيعة؛ بل هو أب اللوغس الذي فينا، الذي نحن أيضًا فيه وبواسطته نصرخ: «يا أبا الآب». وهكذا الذي يَرَى الآب فيهم ابنه الخاص، فهؤلاء يدعوهم أيضًا بنين له﴾ (٢).

«هَا إِنَّ يَدَ الرَّبِّ لَمْ تَقْصُرْ عَنْ أَنْ تُخَلِّصَ، وَلَمْ تَثْقُلْ أُذُنُهُ عَنْ أَنْ تَسْمَعَ.» (إش ٥٩: ١).

ما الذي أكمله الابن الكلمة بتجسُّده وموته وقيامته؟

حقًّا، وبكل يقين، أنَّهُ قد أعلن عن نفسه وعن الآب والرُّوح القُدُس. **وبميلاده من عذراء**، بتوسُّط الرُّوح القُدُس، أَخَذَ جسدًا لا يختلف عن أجسادنا، وصار وسيطًا وشفيعًا بيننا وبين الآب، وصرنا مؤهَّلين للاتحاد به، بسبب اتِّحادنا معًا في طبيعة إنسانيَّة واحدةٍ. (**المسيح إله كامل وإنسان كامل**) وباتِّحادنا به وثباتنا فيه، بقبولنا الحُرِّ لاتِّباعه وإنكارنا لذواتنا وحَمْل الصليب؛ نجونا من الموت الذي كُنَّا رازحين تحت حُكْمه، وخلُصنا من الفساد الذي كان يعمل في طبيعتنا، وخلعنا الإنسان العتيق ولبسنا الجديد الذي يتجدَّد يومًا فيومًا.

لأنَّ الرَّبَّ يسوع بتجسُّده **وولادته من العذراء مريم** بفعل وقوَّة الرُّوح القُدُس، وَضَعَ لنا أساس البداية الجديدة من آدم الثاني لحياةٍ جديدة منسوبة لله الحيّ الذي لا يموت. وبمسحته مِنَ الرُّوح القُدُس لأجلنا، صرنا مُسحاء فيه، واستحققنا أنْ نكون هيكلًا للرُّوح القُدُس. وبموته على الصليب، مزَّق كتاب صَكِّ خطايانا، وحرَّرنا إلى الأبد مِنْ عبوديَّة الخطيَّة، وأسَّسَ لنا ذبيحة جسده ودمه لنأكل ونشرب جسده ودمه للثَّباتِ فيه كلَّما أكلنا وشربنا منه في زمان غربتنا إلى أنْ نملك معه في الحياة الأبديَّة. وبقيامته، أقامنا معه، وأكَّد لنا الانتصار على الموت. وبصعودهِ وجلوسهِ عن يمين الآب، أعدَّ لنا طريقًا جديدًا مُكرَّسًا لكي نجلس معه ونرث معه في عرشهِ الإلهي.

وفي هذا يقول **القديس كيرلُّس الكبير**:

﴿إذن، فكيف يمكن للإنسان الذي على الأرض، الذي هو ملتحفٌ بالموت أنْ يعود إلى عدم الفساد؟ أُجيب: بأنَّهُ يلزم لهذا الجسد المائت أنْ يصير شريكًا للقوَّة المُحيية التي تأتي من الله. قوَّة الله المُحيية هي الكلمة (اللوغس) ابنه الوحيد، هذا قد أرسله لنا الآب مُخلِّصًا وفاديًا. فقد صار الكلمة جسدًا بدون أنْ يتحوَّل (اللاهوت) إلى ما لم يكن عليه من قبل، وبدون أن يفقد كيانه ككلمة الله، ولكنه وُلِدَ بالجسد من امرأة، واقتنى لنفسه ذلك الجسد المأخوذ منها، وذلك لكي يغرس نفسه فينا باتِّحادٍ غير مفترق، يُمكِّنه مِنْ أنْ يرفعنا فوق سُلطان الموت والانحلال معًا.

ويشهد بولس (الرسول) بذلك، حيث يقول عنه وعنَّا: «فإذ قد تشارَكَ الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضًا كذلك فيهما، لكي يُبيد بالموت ذاك الذي له سُلطان الموت، أي إبليس، ويُعْتِق أُولئك الذين خوفًا من الموت، كانوا جميعًا كلَّ حياتهم تحت العبودية» (عب ٢: ١٤، ١٥)...

إذن، فاللوغس لمَّا وحَّدَ بنفسه ذلك الجسد الذي كان فيما سبق خاضعًا للموت، فلكونه هو نفسه الإله والحياة قد أَعتق هذا الجسد من الفساد؛ بل وجعله أيضًا جسدًا مُحيِيًا... إذن، فحينما نأكل جسد المسيح مُخلِّصنا ونشرب دمه الكريم، فإننا نقتني الحياة داخلنا، ونصير – بنوعٍ ما – واحدًا معه؛ بل ونسكن فيه ونقتنيه هو أيضًا داخلنا﴾ (٣).

(1) Against Heresies IV،33،4؛ III،19،1؛ (ANF، I، p. 507،448).

(2) Against the Arians 2،59؛ (NPNF، 2nd Series، Vol. IV، p. 380).

(3) On Luke 22:19؛ Payne Smith, II، 666-668.

الفصل التاسع عشر

تابع من العدد السابق

فنَهَضْنَ وهُنَّ ما زِلْنَ مذهولات بعض الشيء. فسأل **نكتاريوس**:

– « هل عِندَكُنَّ طلبٌ آخر».

فقالت كريزَنتيا:

– « لقد مَضَى علينا وقتٌ طويل ونحنُ نستمع إلى موعظاتك ونُشارك في الخِدَم الإلهيَّة التي تُقيمها يا صاحب السِّيادة. فنتلقَّى منها القُدرة الإلهيَّة والنُّور المقدَّس. ونعتبرك أبًا لنا وحاميًا، وحتَّى دون عِلْمِكَ. ونحنُ نعرف جيّدًا كم تُتْعِبُ نفسك وتهمل صحَّتك. ولذلك فإنَّنا على استعداد للقيام بكلِّ ما تطلب لكي نُساعدك في مجهودك المبارَك، على حسب قُدراتنا. كما نرغب بالاستماع إلى نصائحك ... وكيف يمكنني أن أُعبِّر لكَ ... فأنا غير متعلِّمة ... نحنُ نرغب بأن نُصبح تلميذاتك ! ».

فابتسَم **نكتاريوس** وزَفَرَ، فرأت الفتيات الأربع ابتسامة، أمَّا الضريرة فقد سمعت الزفرة. ثمَّ سأل:

– «هل وجدْتُنَّ الدَّير الذي ستذهبنَ إليه؟».

فأَسَرَّت كاترينا:

– « لقد سافرنا إلى جزيرة تينوس، إلى دير كيشروفوني، فلم نجِد الأمر عَمَلِيًّا بالنسبةِ لنا جميعًا.

– «أَلَم تَذهبنا إلى مكان أقرب: إلى لافيرون.»

– وما رَأيُكُنَّ بذلك الدير.

– إنَّهُ لا يُناسبنا. وفي جميع الأحوال إنَّهُ لا يستطيع أنْ يستقبلنا جميعًا».

ومن جديد عَمَّ الصَّمت، ثمَّ قالَ **نكتاريوس:**

– «حسنًا، أريد أن تعود كاترينا بعد غَدٍ، وفي السَّاعَةِ نفسها تمامًا. وَسَأُعَيِّنُ لكنَّ الأيام والسَّاعات التي تحضرنَ فيها إليَّ. وسأُحاول أن أسرق بعض الوقت، وأرجو أن يقودنا الله كلّنا نحو الخير ... كما أرجو أنْ تتحقَّق رغبتكُنَّ المباركة! إذهبنَ بسلام يا فتياتي العزيزات».

فصَرخت الفتيات من الفرح وجثونَ أمامه باكيات. وراحت كريزَنتيا تتحسَّس الأرض بحثًا عن قَدَمْيهِ لتُقبِّلهما. فرجاهُنَّ **نكتاريوس** أنْ يهدَأْنَ. وكان هو نفسه شديد التأثُّر. فطلب منهنَّ النهوض، وباركَهُنَّ الواحدة بعد الأُخرى، وهو يستعيد كلمات بولس الرَّسول العظيم: « أُرسل لكَ الأخ أوتيخيكُس على وجه السُّرعة».

الفصل العشرون

«وَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعَ تَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ، إِذْ كَانُوا مُنْزَعِجِينَ وَمُنْطَرِحِينَ كَغَنَمٍ لاَ رَاعِيَ لَهَا.» (مت ٩: ٣٦).

«فَلْنَتَقَدَّمْ بِثِقَةٍ إِلَى عَرْشِ النِّعْمَةِ لِكَيْ نَنَالَ رَحْمَةً وَنَجِدَ نِعْمَةً عَوْنًا فِي حِينِهِ.» (عب ٤: ١٦).

عندما كان **نكتاريوس** يأوي إلى فراشِهِ في ليالي الشتاء الباردة بعد صلاته الحارَّة، كثيرًا ما كان يُفكِّر بفتيات الشَّعب الفقيرات المحرومات من الحماية. وكان يتمتم:

– «يا إلهي الحنون، تولَّاهنَّ بحمايتك».

وكان يقرأ مِنْ وقتٍ لآخر بعض العناوين الكبيرة في الصحف، ويُطالع الأخبار عن سقطات مأساويَّة، وعن إخوة يقتتلون من أجل أمور يقولون إنَّها تتعلَّق بالشَّرف، وكان قلبه يدمى. فتساءل:

– « ربِّي وإلهي، كيف تهلك هذه الأرواح دون سبب؟ وكيف يلتقطها عدوّنا الشّرير بين مخالبه المدماة؟».

وكان يرغب بكتابة صلاة من أجل هذه النفوس المعذَّبة، وقصيدة من أعماق القلب من أجل الفتيات الفقيرات اللواتي يَعِشنَ دون حماية، وينزَلِقنَ في الخطيئة والانحطاط دون أنْ يدرينَ. إنَّ كُلَّ فتاة هالكة تنتزع بضع صفحات من كتاب شعبها وكتاب الإنسانيَّة ... وكلّهنَّ في هذا الموكب ...

ولو تسَنَّى لكلِّ واحدة منهنَّ أنْ تسلك كما يليق نحو سرّ الزَّواج، وأن تُصبح أُمًّا، لاستطاعت أنْ تنقل فضائل قلبها العطرة إلى جمهور متحدِّر منها. ويا للويل إذا لم يُدخِلوها من «الباب الضيِّق»، وإذا جعلت حياة والدة الإله، ولم تُطَبِّق وصايا الرَّبِّ المُحسِن. أمَّا إذا تقدَّمت باتِّجاه الحياة الرهبانيَّة، وحملت بعزمٍ الصَّليب الكريم، فإنَّها تقدِّم المثال للكثيرات غيرها من الفتيات، وتضحي شهادةً وتعليمًا: شهادة صبر في وسط نيران التجارب. وتنقل الأخبارُ سِمعتهُنَّ وسيرة صَبرهِنَّ وسط التجارب، وتفانيهنَّ في سبيل المسيح المُخَلِّص.

ولم يكتب **نكتاريوس** طوال حياته هذه الصلاة التي كان يحلم بها، بل بقيت مُحبَّأة في قلبه حتَّى نَسمته الأخيرة، إلى جانب غيرها مِنَ الصلوات لوالدة الإله حامية المؤمنين الحيَّة واليوميَّة.

وصارَ من عادته في الآونة الأخيرة أن يتوَجَّه على الدوام إلى والدة الإله في المرارة كما في الشكّ والذِّل. وكانت صلاته إليها كصلاة الطفل لِأُمِّهِ: صلاة وحوار في آنٍ واحد. فكانا يتكلَّما معًا بهذه الطريقة كُلَّ ليلة تقريبًا، فَيُطَيِّبُ الأمل جراحاته.

(التتمة في العدد القادم)

تتمة من العدد السابق:

يقول: «وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ، الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً.» (١كو ١: ٣١).

أَعْتَقِدُ أَنَّ كلمة «**وَمِنْهُ**»، هنا لا يقصد بها الولادة، بل الإيمان، أي أنَّنا صرنا أبناء **الله**، لا بسبب الدَّم، ولا بإرادة الجسَد. إذًا لا تظنُّوا أنَّهُ نزَعَ عنكم هذا الافتخار بلا داعٍ، لأنَّه أعطاكم افتخارًا أعظَمَ. أي أنَّكم أبناء **الله**، وأنَّهُ لا ينبغي أَنْ تفتخروا أمامه، وقد صرتم هكذا **بالمسيح**. ولأنَّه قال: «اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ» (١كو١: ٢٧)، فقد بَرْهَنَ على أَنَّ لهم أَفْضَل وأشرف أصل، لأَنَّ أباهم هو **الله**. وبسبب هذا الأصل النَّبيل، ليس هو هذا أو ذاك، بل هو **المسيح** الَّذي جعلكم حُكماء، وأبرارًا وقدِّيسين لأنَّ هذا هو معنى: «صَارَ لَنَا حِكْمَةً» (١كو١: ٣٠).

٣ – إذًا هل هناك مَن هو أكثر حكمة منَّا، فنحنُ وإنْ كُنَّا لا نملك حكمة أفلاطون، إلَّا أنَّنا نملك حكمة **المسيح**؟ وماذا يعني بقوله: «**مِنَ اللهِ**»؟. يعني: أنَّهُ عندما يتحدَّث بكلامٍ هامّ عن **الابن وحيد الجنس**، فإنَّه يذكر عندئذ **الآب**، حتَّى لا يَظنَّ أحد أنَّ الابن غير مولود. إذًا لماذا قال: «إنَّ له كُلَّ هذه القوَّة، وأعطى كلَّ شيء للابن، وأنَّه صار لنا حكمة؟»، يرجع ذلك لأنَّه أراد أنْ يُظهر فيه العطيَّة، كما لو أنَّهُ يقول: أنَّهُ أعطَى نفسهُ لنَا. ولاحظ كيف يتقدَّم في الحديث، أوَّلًا بعدما خلَّصنا من الخداع، وجعلنا حُكماء، وبعدما أعطانا **الرُّوح القُدُس**، جعلنا أبرارًا وقدِّيسين . وهكذا أنقَذَنا من كُلِّ الشُّرور حتى نكون خاصته، وهنا يؤكِّد على أنَّنا صِرنَا خاصته بالإيمان. وفي موضعٍ آخر يذكِّر أنَّنا صرنا بِرَّ الله فيه قائلًا: «لأنه جعل الذي لم يعرف خطيَّة، خطية لأجلنا، لنصير نحن برَّ الله فيه.» (٢كو٥: ٢١). الآن يقول: «**صَارَ لَنَا حِكْمَةً**»، حتَّى أنَّ مَنْ يريد، يمكنه أنْ يأخذ هذه العطيَّة الوفيرة، إذًا فالذي يجعلنا حُكماء، هو **المسيح** وليسَ سواه.

هكذا فإنَّ مَنْ يُريد أنْ يفتخر، فَلْيَفْتَخِرْ بالمسيح، لأَنَّ كُلَّ شيء بلا استثناء، قد صارَ **بالمسيح**، ولذلك فبعدما قال: «**الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً.**» أضافَ: «**حَتَّى كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: مَنِ افْتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ**» (**١كو١: ٣١**).

لأجلِ هذا هاجَمَ حكمة اليونانيين بقوَّة، لكي يُقنع النَّاس بِأنْ يفتخروا بالرَّبِ. وهذا هو الحقُّ. فليس هناك ما هو أكثر جهالة وضعفًا منَّا عندما نطلب مِنْ أنفسنا أشياء تتجاوز قُدراتنا، لأنَّه مِنَ الممكن أنْ يكون لدينا لسانٌ مُدَرَّبٌ (على الكلام)، لكن دون أنْ يكونَ لدينا ذهنٌ قويٌّ، بل إنَّ أفكار الانسان بحدِّ ذاتها تُشبه نسيج العنكبوت، أي أنَّ البعض وَصَلَ إلى هذا الحدِّ مِنَ الخبل، حتَّى أنَّهم يقولون: إنَّ لا شيء مِنَ الكائنات حقيقيٌّ. ويزعمون وبإصرارٍ أنَّ كُلَّ شيء هو على عكس ما يظهر.

إذًا لا تَقُل إنَّهُ شيءٌ خاصٌ بِكَ. بل يجب عليكَ أنْ تفتخر بالرَّبِّ في كُلِّ شيء، لا تَنسُب أبدًا شيئًا للإنسان، لأنَّهُ إنْ كان لا يجب أنْ تَنسُبَ شيئًا لبولس، فبالأكثر جدًّا لا ينبغي أنْ تَنسُبَ شيئًا للآخرين، لأنَّهُ يقول:«أنا غرستُ وأبُولُّس سَقَى لكن الله كان يُنمِّي» (١كو٦ :٣). مَنْ تعلَّمَ أنْ يفتخر في الرَّبِّ، فحتمًا سيكون مُفتَخِرًا، بل إنَّهُ على الدوام سيكون متواضعًا وسعيدًا وشاكرًا على كُلِّ شيء، إلَّا أنَّ اليونانيين ليسوا هكذا، بل إنَّهم ينسبون كُلَّ شيء لأنفسهم، ولأجل هذا يُقيمون أو يُنَصِّبونَ من البشر آلهة، هكذا تزداد جهالتهم إلى هذا الحدِّ الكبير.

لقد حانَ الوقت لكي نَشُنَّ حربًا على هؤلاء، لكن أينَ توقفنا في حديثنا في اليوم السَّابِق؟ قُلنا إنَّهُ من غير الممكن بحسب الفكر والمنطق الإنساني، أن يتفوَّق الصَّيَّادون على الفلاسفة، ولكن هذا قد صارَ ممكنًا، وهكذا نكون قد أكَّدنا أنَّ هذا التفوُّق قد تمَّ **بنعمة الله**. وقُلنا إنَّهُ من غير الممكن أن يفكِّروا في تحقيقِ إنجازاتٍ عظيمةٍ بهذا القَدَر، وَبَيَّنَا أنَّهُ ليسَ فقط لم يطرأ على تفكيرهم هذا الأمر، لكنَّهم قد حقَّقوا ما هو أبعد من ذلك بسهولَةٍ كبيرةٍ. لنبحث اليوم أيضًا نفس الموضوع، ولنتحدَّث عن رجائهم، بأن يسودوا على المسكونة كلّها، وكيف كان

لهم أن يُفكِّروا في هذا، إنْ لَمْ يكونوا قد رأوا **المسيح** القائم من بين الأموات.

هل أصابهم الجنون حتَّى يُفَكِّروا في شيء مثل هذا بسذاجةٍ وسطحيَّةٍ؟ لأنَّهُ بالتأكيد هو أمرٌ يتجاوز كُلَّ معاني الجنون، أنْ ينتظر أحد تحقيق مثل هذا العمل العظيم بدون **النعمة الإلهيَّةِ**. كيف للمَهْووسين والمخبولين أنْ يحقِّقوا هذا الأمر؟ فإنْ كانوا عُقلاء، وهو الأمر الذي أظهرته الأحداث، كيف قرَّرَ هؤلاء الاثني عشر أنْ يخوضوا حروبًا بهذا القَدْرِ الكبير، وأنْ يتعرَّضوا لمخاطر كبيرة في الأرضِ والبحرِ؟ إنْ لَمْ يكونوا قد نالوا ضمانًا مُؤَكَّدًا مِنَ السَّماء، ودون أنْ تكونَ لديهم معونة مِنْ فوق؟ وكيفَ شَرَعوا في تغيير جميع العادات والتقاليد التي استقرَّت في المسكونة كلِّها لسنواتٍ طويلة جدًّا. وكيفَ أظهروا هذه الحقيقة الكاملة؟ والأَهم مِنْ كُلِّ هذا، كيف تمكَّنوا أنْ يُقنِعوا السَّامعين لهم بينما هم يتطلَّعون إلى السَّماءِ والحياة السَّماويَّة؟ وحتَّى وإنْ كان لديهم مجدٌ وَغِنى وقوَّةٌ عالميَّة وثقافة، ما كان لهم آنذاك، ولا مِنَ المنطقِ أيضًا أنْ يخوضوا صراعًا في مواجهة كُلِّ هذا الكمِّ الضخم مِنَ الأحداث. لكن ربما يكون هناك سببٌ آخرُ مَخبُوءٌ في هذا الرَّجاء الذي كان لديهم، فهؤلاء كان البعض منهم مشغولًا بالصَّيدِ في البُحيْرَة، وآخرون بصناعة الجلود، والبعض الآخر بجباية الضرائب.

وبالطبع لا توجد مِهَن بلا قيمة بهذا القَدْرِ، مثل هذه المِهَن المتواضعة إذا ما قورِنَت بالفلسفةِ. فلِكَيْ يُقنع أحدٌ الآخر، يجب أنْ تكون لديه رُؤَى كبيرةٌ. وخاصَةً عندما لا يكون لدى المرءِ نماذج سابقة، بل وهذه النَّماذج كان يجب أنْ تكون ظاهرة وواضحة. وربما ليس فقط لم يكن لديهم نماذج، بل ولا حتَّى كانوا سيحتفظون بكيانهم، فكثيرون مِمَّن أرادوا إحداث تجديد واختفوا، ولا أقصد اليونانيين. لأنَّهُ لَمْ يَكُن هناك آنذاك حتَّى مُجَرَّد محاولة، بل ولا لدى اليهودِ أنفسهم في ذلك العصر، وبالرَّغمِ مِنْ أنَّهم قد تعهَّدوا بمقاومة السُّلطَة، ليسَ بواسطة اثني عشر إنسانًا، بل بجموعٍ كثيرة. أَجَل، فَإنَّ **يوداس، ويهوذا** بالرَّغمِ من أنَّهُ كان لهما اتباع كثيرون، إلَّا أنَّهما هلكا مع تلاميذهما. (أنظر أع ٩:٣٦-٣٧). وكانَ الخوف مِنَ الفَشَل كافيًا أنْ يجعل أولئك (الرُّسل) معتدلين، إنْ لَمْ يكونوا واثقين ومتأَكِّدين تمامًا، أنَّ انتصارهم كان مستحيلًا بدون القوَّةِ الإلهيَّةِ. وحتَّى وإنْ كانوا بعد قد تَرَجَّوا أنْ ينتصروا، فَبِأَيِّ رجاءٍ واجهوا كُلَّ هذا القَدْرِ الكبيرِ مِنَ الأخطارِ، إنْ لَمْ يكونوا مجذوبين ومتطلِّعين نحو حياة الدَّهر الآتي؟؛ فلنتقبَّل فكرة أنَّهم ترجَّوا أنْ يسودوا (على المسكونةِ كلِّها)، فهل ترجَّوا أنَّهم سينتصرون في الحرب ويَجذِبون الجميع **للمسيحِ**، إنْ كانَ لَمْ يَقُم، خاصَّةً وهم قالوا: **أنَّهُ قام ؟**.

٤ – لأَنَّهُ إنْ كانَ الَّذين آمنوا الآن بملكوت السموات وبالخيرات التي لا حصرَ لها، يتقبَّلوا الأخطارَ بصعوبَةٍ، فكيفَ كان لأولئك أنْ يصبروا باطلًا على كُلِّ هذه المخاطر التي كانت مِنَ الممكن أنْ تؤول إلى هلاهكم؟ فإن لم يَكُن **المسيح** قد صَعِدَ إلى السماء، لكانت محاولتهم هذه تبدو على أنَّها مجرَّد ابتداعٍ واصطناعٍ لتلك الأمور، وهكذا أيضًا إقناع الآخرين. وكان مِنَ المتوقَّعِ أنْ يأتوا في صدام مع **الله**، وأنْ ينتظروا صواعق مِنَ السَّماء لا حصرَ لها. أيضًا مع افتراض أنَّ الرَّغبة لديهم كانت قائمة في قبول كُلِّ شيءٍ صعب يمكن أنْ يتعرَّضوا له، بينما كان **المسيح** يعيش معهم بالجسد. لكانوا قد أطفأوها عند موته. فإنْ لَمْ يكن قد قام، لكانوا قد نظروا إليه على أنَّهُ شخصٌ مخادع. أَلَا تعلمون أنَّ الجيوش تبقى متماسكة ومتَّحِدة حتَّى ولو كانت ضعيفة، مادام قائدها وملكها على قيد الحياة، لكن عندما يموت القائد أو الملك، تنحلُّ الجيوش حتَّى ولو كانت بعد قَوِيَّةً؟.

أَخبِرني إذًا ما هو الكلام الذي كانوا يتحدَّثونَ به عندما بدأوا الكِرازةَ متوَجِّهين إلى المسكونَةِ كلِّها؟ وما هي العوائق التي لم تستطع أنْ توقفهم؟. فإنْ كانوا مهووسين – لأنَّهم لم يتوَقَّفوا عن التحدُّث بنفس الكلام – ما كان لهم أنْ يحقِّقوا أيَّ شيء، لأنَّ لا أحد يقتنع بالمهووسين، ولكن إنْ كانوا قد حقَّقوا الكثير، فإنَّ هذا بحدِّ ذاته يُبَيِّن أنَّهم كانوا أكثر حكمة مِنَ الجميع. وإنْ كانوا أكثر حكمة مِنَ الجميع، فَمِنَ الواضح أنَّ بداية كرازتهم لم تَكُن بلا سبب. فإنْ لم يكونوا قد رأوا **المسيح** القائم من بين الأموات، فهل تعتقد أنَّ هناك شيئًا كان قادِرًا أنْ يدفعهم إلى هذه الحرب؟. لقد قالَ لتلاميذِهِ: إنَّهُ «بعد ثلاثة أيَّام أقوم»، ووعدهم **بملكوت الله**، وقال لهم: إنَّهم سيسودون على المسكونةِ كلِّها بعدما ينالون **الرّوح القُدُس**، وتكلَّمَ عن أشياء أُخرى كثيرة جدًّا، وتتجاوز كُلَّ منطق، وتفوقُ كُلَّ عقل.

وإن لَمْ يَكُن قد حدثَ شيء مِنْ كُلِّ هذا، وإنْ كانوا بعد قد اقتنعوا بكلامه حين كانَ على قيد الحياة، لكن بعد موته، ما كانَ لهم أنْ يقتنعوا، إنْ لَمْ يروهُ قائمًا مِنْ بين الأموات، لأنَّهُ قال: «بعد ثلاثة أيَّام أقوم»، فإنْ لَمْ يَكُنْ قد قام، وإنْ كانَ قد وَعَدَ أنْ يُعطينا **الرُّوح القُدُس**، بل يُرسله، فكيف كُنَّا سنُؤمن بكلامه عن حياة الدهر الآتي، في اللحظة التي فيها بَدَتْ أُمور الحياة الحاضرة كاذبة؟ وطالما أنَّهُ لَمْ يَقُم فما الدَّاعي للكرازةِ بأنَّه قام؟. سيقول البعض لأنَّهم كانو يحبُّونه، ولكن كان مِنَ الطبيعي أيضًا أنْ يُبغضونه، لأنَّه يكون قد خدعهم وخانهم، ولأنَّهُ بعدما أثارهم بآلاف الوعود، اقتلعهم مِنْ بيوتهم ونزَعهم عن أُسَرِهم، بل وعن كُلِّ شيء، وجعل أُمَّةً كاملةً وهي الأُمَّةُ اليهوديَّةُ في عداوة مع هؤلاء، وهذا كلُّهُ يمثِّلُ نوعًا مِنَ الخيانة. وإنْ كان ما حدثَ هو نتيجة ضُعفٍ سيُسامحونَهُ، لكن في هذه الحالة أيضًا سَيُعَدُّ هذا الأمر خداعًا كبيرًا، لأنَّهُ كان ينبغي أنْ يقول لهم الحقيقة، وأَلَّا يَعِد بملكوت السموات، طالما أنَّهُ كانَ إنسانًا فانيًا كما تقولون.

لقد كان من الطبيعي لهؤلاءِ أنْ ينشطوا بطريقةٍ عكسيَّةٍ، ويميِّزوا الخداع، وانْ يَدعُوا ذاك بالمخادع والمُضَلِّل، لأنَّه هكذا سيُنقَذونَ مِنَ الأخطار، وسيضعونَ حدًّا للحربِ. أيْ إنْ كانَ اليهود قد أعطوا مالًا للجنودِ لكي يقولوا إنَّ تلاميذَهُ قد سرقوا الجسد وأنَّهُ لَمْ يَقُم، فهل بعد ذلك سينالون كرامة؟ فقد كان مِنَ الممكن أنْ يُكرَّموا وأنْ يُتَوَّجوا.

إذًا لأي سبب فَضَّلَ هؤلاء قبول الازدراء والأخطار، إنْ لَمْ تَكُن هناك قوَّة إلهيَّة قد اقنعتهم وملأتهم ثقة، والتي هي أكثر قوَّة من كُلِّ الأشياء؟ وإذا كانوا لم يقتنعوا بعد، فلتفكِّر في الآتي، إنْ لم تكن

الحقيقة هي هكذا (كما تسلَّموها)، وإنْ كانوا بعد في طور الإعداد (للكرازة)، ما كان لهم أنْ يكرزوا **بآسم يسوع**، بل لَتَحَوَّلُوا عنه، لأنَّكم تعرفون أنَّنا لا نُريد أنْ نسمع ولا حتَّى أسماء أولئك الذين يرتكبون مثل هذا الخداع. لكن لماذا أصرُّوا على الكرازة بآسمه؟ هل لأنَّهم كان لديهم رجاء بأنَّهم سيملكون أو سيسودون (على المسكونةِ كلِّها) بواسطتهِ أو بآسمِهِ؟ لكن كان يجب أنْ ينتظروا ما هو عكس ذلك، فحتَّى لو كانوا سيملكون بعد، لكانوا سيهلكون، لأنَّهم نادوا بآسم شخصٍ مُخادع. فإنْ كانوا يرغبون في أنْ يجعلوا ماضيهم غائمًا وغامضًا، فكان ينبغي عليهم أنْ يَصمتوا، لأنَّهُ كما هو معروف أنَّ إصرارهم على الجهاد والكفاح (لنشر كلمة الإنجيل)، قد أجَّجَ وأثارَ ضدَّهم السُّخرية أكثر.

فكيفَ خَطَرَ على ذهنهم أنْ يختلقوا مثل هذه الأمور؟ خاصَّةً وقد نَسُوْا كُلَّ ما سَمعوه. فإنْ كانوا قد نَسُوْا الكثير حين لم يَكُن الخوف قد تملَّكَهُم، وأنَّ بعض الأمور لم يستطعوا أن يفهموها – كما يقول الإنجيلي – عندما تهدَّدَهم خطرٌ كبير بهذا القَدْر، فهل تعتقد أنَّهم سيتذكَّرون شيئًا؟؛ وماذا أقول: هَلْ ستهجرهم كلمة الكرازة في اللحظة التي فيها قد بدأ شوقهم إلى معلِّمهم يخبُو رويدًا رويدًا، بسبب الخوفِ مِنَ الأمور التي ستحدث؟ وهذا تحديدًا هو ما كان يبحث عنه هؤلاء. وإذ كانوا مُتعلِّقين بِمُعَلِّمهم باستمرار، وقد سألوه قبل ذلك، أين تمضي؟ بعد ذلك وبعدما تكلَّم طويلًا متحدِّثًا عن الآلام التي سيُلاقونها وقت الصَّلبِ وبعد الصَّلبْ، ولأنَّهم تجَمَّدوا بسبب خوفهم وظلُّوا صامتين، إسمع كيف يقول لهم نفس الشيء : «ليسَ أحدٌ منكم يسألني أينَ تمضي، لكن لأنِّي قلتُ لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم» (يو ١٦: ٥-٦). إذًا بعدما مَلأَ الحزن قلوبهم إلى هذا الحدِّ الكبير، وهُم منتظرون موته وقيامته، كيف لهم ألَّا يَضلُّوا وألَّا يَشرعوا في الانغماس في الأرضيَّات مملوئين بالحزن، بسبب الخوف مِنَ المستقبل؟.

(يتبع في العدد القادم)

تابع من صفحة ٣

لكن عندما يأتي وقت الانتقام **الإلهي لدم الأبرار**، يُعلن الرُّوح القُدُس بواسطة **ملاخي النبي**: «فَهُوَذَا يَأْتِي الْيَوْمُ الْمُتَّقِدُ كَالتَّنُّورِ، وَكُلُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَكُلُّ فَاعِلِي الشَّرِّ يَكُونُونَ قَشًّا، وَيُحْرِقُهُمُ الْيَوْمُ الآتِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (ملا٤: ١).

ونقرأ أيضًا **في المزامير**، أنَّهُ يجب توقير مجيئ الله الدَّيان بسبب جلال عظمة دينونته: «يَأْتِي إِلهُنَا وَلاَ يَصْمُتُ. نَارٌ قُدَّامَهُ تَأْكُلُ، وَحَوْلَهُ عَاصِفٌ جِدًّا. يَدْعُو السَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقُ، وَالأَرْضَ إِلَى مُدَايَنَةِ شَعْبِهِ: اجْمَعُوا إِلَيَّ أَتْقِيَائِي، الْقَاطِعِينَ عَهْدِي عَلَى ذَبِيحَةٍ، السموات وَتُخْبِرُ السَّمَاوَاتُ بِعَدْلِهِ، لأَنَّ اللهَ هُوَ الدَّيَّانُ.» (مز٤٩: ٣-٦).

وإشعيا يتنبأ بنفس الأمر قائلًا: «لأَنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ بِالنَّارِ يَأْتِي، وَمَرْكَبَاتُهُ كَزَوْبَعَةٍ لِيَرُدَّ بِحُمُوٍّ غَضَبَهُ، وَزَجْرَهُ بِلَهِيبِ نَارٍ. لأَنَّ الرَّبَّ بِالنَّارِ يُعَاقِبُ وَبِسَيْفِهِ عَلَى كُلِّ بَشَرٍ» (إش ٦٦: ١٥-١٦)،

وأيضًا: «الرَّبّ كجبار يبرز وكرجل قتال يُثير غيرته، ويصرخ ويزعق ويتجبر على أعدائه: سكت مُطولًا وصمت، ولن أبقى صامتًا ابدًا! » (إش ٤٢: ١٣-١٤ سبعينيّة).

لكن مَنْ هذا الذي يقول أنَّهُ كان صامتًا في السَّابق، ولن يكون صامتًا أبدًا ؟

بالتأكيد هو ذاك الذي : «كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ.» (إش ٥٣: ٧).

بالتأكيد هو ذاك الذي : « لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ.» (إش ٤٢: ٢).

بالتأكيد هو ذاك الذي : « لَمْ أُعَانِدْ. إِلَى الْوَرَاءِ لَمْ أَرْتَدَّ. بَذَلْتُ ظَهْرِي لِلضَّارِبِينَ، وَخَدَّيَّ لِلنَّاتِفِينَ. وَجْهِي لَمْ أَسْتُرْ عَنِ الْعَارِ وَالْبَصْقِ.» (إش ٥٠: ٥-٦).

هو ذاك الذي لم يُجاوب بشيء عندما اتهمه **الكهنة والشيوخ**: «فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ:«أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هذَانِ عَلَيْكَ؟» وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتًا.» (مت٢٧: ٦٢-٦٣)، ولدهشة **بيلاطس** بقي صامتًا محتملًا في صبر:«فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَمَا تَسْمَعُ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ؟» فَلَمْ يُجِبْهُ وَلاَ عَنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، حَتَّى تَعَجَّبَ الْوَالِي جِدًّا.» (مت ٢٧: ١٣-١٤).

هو ذاك الذي بالرَّغم من أنَّهُ كان صامتًا في آلامه، لَنْ يكون صامتًا في يوم الحساب. أنَّه إلهنا، أي الإله غير المعترَف بِهِ من الكُل، بل من المؤمنين، وعندما يأتي مُظهرًا ذاته في مجيئه الثاني، لَنْ يكون صامتًا. لأنَّهُ بالرَّغمِ من أنَّهُ كان مخفيًّا في تواضع، في مجيئه السابق، إلَّا أنَّهُ سوف يأتي مُتجلِّيًا في قوَّتِهِ.

أيها الأخوة الأحباء، هذا هو الديَّان والمنتقم الذي يجب أنْ ننتظره، الذي عندما ينتقم لنفسه سينتقم لنا نحن شعب كنيسته، ولكُلِّ الأبرار من بداية العالم. ليت ذلك الذي **يسرع ويستعجل كثيرًا انتقامه الخاص** يُراعي أنَّ ذاك الذي وحده له النقمة لم ينتقم لذاتِهِ بعد.

ما أعجب يسوع ربَّنا، وياله من صبرٍ عظيم، أنَّ ذاك المُمَجَّد في السَّماءِ لم يُنتقَم له بعد على الأرض!

فلنفتكر في صبره – أيها الأخوة الأحباء – في إضطهاداتنا ومعاناتنا. ولنُظهر الطَّاعة الكاملة المُلهمة بتطلعنا لمجيئه، ودعنا لا نتعجل وندافع عن أنفسنا قبل الرَّبّ باستعجال **عبد أثيم**، بل بالأحرى نُثابر ونُجاهد ساهرين بكل قلوبنا ونكون صامدين حتى النِّهاية، ولنتيقَّظ للعمل بوصايا الرَّبّ حتى عندما يأتي يوم الغضب والانتقام لا نُعاقَب مع **الأشرار** بل نُكرَّم مع **الأبرار**.

فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ. وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيًّا جِدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. وَسَارَ فِي رِحْلاَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ، إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلاً. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ .

وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ، كَانَ لَهُ أَيْضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلاَكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. فَحَدَثَتْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفَرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الأَرْضِ. فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: «لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالاً ».

فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ، قَبْلَمَا أَخْرَبَ الرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، كَجَنَّةِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ. حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى صُوغَرَ. فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ، وَارْتَحَلَ لُوطٌ شَرْقًا. فَاعْتَزَلَ الْوَاحِدُ عَنِ الآخَرِ. أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ، وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ. وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا. (تكوين ١٣: ١-١٣).

لقد تَبِعَ لوط أبرآم يوم أنْ انحدر إلى مصرَ، وممّا لاشكَّ فيه أنّ الذهاب إلى مصرَ طبع في ذهن لوط الشّاب تأثيرًا لا يُمحى. ثم عاد إبراهيم (أبرآم) منْ مصرَ؛ أعادته يد الله الشّافية، لكنّنا ما نقرأ أنّ يد الله كانت على لوط لتُرجعه من مصرَ. فجاء الرّخاء مُتَمَثِّلًا في مواشٍ كثيرة جدًّا حتى لم تحتملهما الأرض أنْ يسكنا معًا (تك ١٣: ٦)، فكانت مخاصمة بين رُعاة لوط و رعاة إبراهيم (أبرآم)، وكان يتعيَّن إيجاد حلّ. فجاء الوقت الذي لم يَعُد في إمكانه أنْ يتبعه بعد، يوم وقف يختار لنفسه.

عندما حدثت المخاصمة قال أبرآم للوط: «أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ .. إِنْ ذَهَبتَ شِمَالًا فَأَنَا يَمِينًا وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالًا» (تك ١٣: ٨-٩)، فحدَّد أبرآم هذه الاتجاهات دون ذكر «الشرق» حيث سدوم، **رائدة الانحطاط الخُلقي وقتئذٍ**. فإلى أي موضع ذهب اختياره؟ ثَبَّت لوط نظره على الشَّرق حيث سدوم، التي رآها كجنة الرَّبّ كأرض مصرَ، ويبدو أنَّ مصرَ التي قضى بها وقتًا، كانت تُداعب خياله. اختار لوط كل دائرة الأردن الخِصبة والمُثمرة. ثمّ نقل خيامه إلى سهول سدوم وهكذا أثارت مصرَ رغائب قلب لوط لإشباعِ ميوله ومسرَّاته الكامنة. فإذ تُرِك لاختياره اختار ما هو الأحسن في نظر الطبيعة، رأى كُلّ ما كان يظن أنَّ فيه راحته الحاضرة وغناه. ففي كُلِّ مكان في مدن الدائرة رأى فيها ما يعوِّضه، رأى ماء لمواشيه دون أن يضطره الأمر لحفر آبار.

عندما اختار لوط أرضًا، لم يكن شاغله أيةَ أرضٍ يريده الله أنْ يسكن فيها، لكنه اختار لنفسه وبحسب مرأى عينيه لتكون مكان سُكناه. اختار سدوم وهو المكان الذي كان الله مزمعًا أن يرسل **نارًا وكبريتًا** من السماء ليهلكها. قد يقول البعض إنّ لوطًا لم يكن يعرف شيئًا من ذلك؛ وأيضًا ربما ولا أبرآم؛ ولكن الله كان يعلم، ولو كان لوط ترك للرّبِّ أمر الاختيار ما كان ليختار له نصيبًا في دائرة كان هو مزمعًا أن يهلكها.

وجاءت تلك الأيام الرَّهيبة التي قَدُم الملوك لمحاربة بعضهم، فاندلعَت حرب قُطرية مُنظمة بين أربعة ملوك وخمسة ملوك، ونُهب فيها **كَدَر لعومر** مدينة سدوم، وأُخِذَ لوط أسيرًا ومَنْ معه (تك ١٤). فكانت هذه الحرب بمثابة زلزال لإنهاض لوط من حالتهِ، وكأنَّ الرُّوح القُدُس يمسّ قلب لوط. فمن الوجهة الرُّوحِيَّة لم يكن المقصود مِنْ هذه الحرب إلَّا لوط (١).

ألم يشعر لوط وهو في موكب الأسرى بتأنيب ضميره على الوسط الذي جاء ليسكن فيه؟ أراد الله أنْ يعلِّمه عن طريق هذه الأحداث الرَّهيبة بالرجوعِ إلى كنعان والبُعد عن سدوم. كان على لوط – بعد أن أنقذه الرَّبّ بواسطة أبرآم – أنْ يجلس أمام الرَّبّ ويقول له: «**هذا نتيجة**

رفع عينيَّ واختياري لنفسي، لكني أخطأتُ، وعيني الآن نحوك، أخبرني إلى أين أذهب؟» وبذلك كان يتقوّى من ضعف (عب ١١: ٣٤). لكن بَعد أنْ خلَّصه إبراهيم (أبرآم) من أَسْرِهِ سرعان ما انمحى **الذُّل والهوان** الذي كان فيه، وكأنْ لم يكن شيئًا! فنجده للأسف يعود مرَّة أُخرى إلى **سدوم**، رغم كُلِّ ما قاساه فيها وبسببها. وبدلًا مِنْ أنْ يفهم فكر الرَّبّ مِنْ جهة الحرب، ويترك **سدوم**، استغلَّ موقف الانتصار الذي حقَّقه **أبرآم**، وجلس في باب المدينة كما يجلس الحُكَّام.

رجع لوط إلى **سدوم** ثانية فاحتاج الأمر إلى عملية أخرى أقسى وأشَدّ مرارة مِنَ الأولى. فتطلَّب الأمر حادثًا فظيعًا لإخراج مؤمن مِنْ **سدوم**. زيارة ملائكة ونار من السماء نجحت أخيرًا في إخراجه مِنْ **سدوم**، لكن بعد صراع ومماطلة وخسارة. (تك ١٩: ١٥ – ٢٩).

من قراءة تكوين ١٩ يصعب علينا تصديق أنَّ لوطًا، ابن أخي إبراهيم (أبرآم)، هو شخص مؤمن بل «بارًّا» كما وُصِف في ٢بطرس ٢: ٧، ٨. فيطالعنا هذا الأصحاح بلوط البار جالسًا في **باب سدوم**. ربما الاحترام والتقدير اللذان كان يتمتَّع بهما وانتصار إبراهيم (أبرآم) في الحرب لصالح **سدوم** منحه مركز القاضي، فشغل مركزًا هامًّا في إدارة شؤون المدينة المُشرفة على الهلاك، ويحكم حكمًا في مكان بلا ضوابط أو أحكام! فهل كان مُضطرًّا أنْ يوافق على الشّرور الحادثة قدامه دون أنْ ينطق بكلمة اعتراض لأنّ مركزه حساس؟ أم أنَّهُ فقد شجاعته الرُّوحيَّة لأنه تورَّط في علاقات عالميَّة؟!

فعلى ما يبدو أنّ زواج لوط لم يكن بحسب مشيئة الله، فلم تكن امرأته من النساء القديسات كسارة، بل كانت عالمِيَّة دُنيَويَّة. فاتخذ لنفسه زوجة من هناك، فهل وجد لوط عُذرًا لنفسه لأنْ يتزوَّج من بنات العالم، لأنَّهُ لم يجد مؤمنات هناك ليتزوَّج إحداهنّ. لكن أين يجب على المؤمن أنْ يفتش عن زوجة له؟ هل في حانة، أم في أماكن اللهو وملذات العالم؟ لقد **حذّر** الرُّوح القُدُس المؤمن مِنْ أنْ يكون تحت نير مع غير المؤمن. «لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟» (٢كو٦: ١٤). وعندما زوَّج بناته لم يأخذ الموضوع بجدِّيّة، ولم يتعامل معه بالأهمية مثلما فعل إبراهيم (أبرآم) في زواج إسحاق ابنه؛ فبينما رفض إبراهيم (أبرآم) أن يُزوِّج ابنَه من بنات الكنعانيِّين، فإن لوطًا زَوَّجَ بناته لشباب أشرار من **سدوم**. ألم يشعر بجسامة المسؤوليَّة عن التأثير الذي يُسَبِّبه لأعضاء عائلته. وهكذا غزا فساد **سدوم** الأدبي كل عائلته مُخلِّفًا وراءهُ **وصمة عار وبصمة دمار**.

لم يذهب الرَّبّ لزيارته كما مع إبراهيم (أبرآم)، بل اكتفى بإرسال الملاكين. ففي تكوين ١٨ بينما كان إبراهيم (أبرآم) في باب خيمته يتمتَّع بالشَّركة مع الرَّبّ، ظهر له الرَّبّ ومعه ملاكان في حَرِّ النَّهار. أمَّا في تكوين ١٩ فنرى الملاكين فقط ذاهبين إلى **سدوم** سرًّا في المساء لِيُنقذا مؤمنًا مغلوبًا مِنْ وسط نيران القضاء(٢)، ولم يحظَ بزيارة الرَّبّ له. حاول لوط أنْ يَقِي الملاكين مِنْ إهانات أهل **سدوم**، لكنّه يرى نفسه غير قادر على أنْ يضع حدًا لِشَرِّ أهلها، إلى درجة أنْ عَرَضَ ابنتيهِ لتهدئة الحالة! تبلّدت حواسه الرُّوحيَّة بفعل **مناخ سدوم الشرير**، فلكي يُنقِذ ضَيْفَيْهِ، لجأ لعرضٍ **يندى له الجبين** (تك ١٩: ٨).

فَقَدَ شهادته وتأثيره حتّى على أقاربه، ولما حانت الفرصة لإنذارهم مِنَ الهلاك الوشيك، كلَّم أصهاره الآخذين بناته أنْ يخرجوا مِنَ المكان، لكنَّهم ظنُّوه يمزح، لماذا؟ أَلم يكن قد أخبرهم مِنْ قبل عن غضب الله مِنْ **شَرّ سدوم**، وأنَّهُ لا بُدَّ أنْ **يدين الخطيئة**؟ هل انزلق إلى عادة عدم الجديّة حتى إنه عندما كان جادًّا لم يكن له تأثيرٌ فيهم؟ (تك ١٩: ١٤).

«وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلَّا تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ»، ولكن «لَمَّا تَوَانَى»، غير راغب أنْ يترك **سدوم**، إلى هذا الحَدِّ كان متعلِّقًا بالأرض التي ستحترق بعد قليل!! فرغم إنذار الملاكين له من **الدينونة الآتية**، إلَّا أنَّهُ كان متباطئًا مُتَلَكِّئًا في الخروج مِنْ **سدوم**. كان الملاكان كمَن يسوقونهم ويجرونهم خارج **سدوم** عُنوةً، ثم أجبروهم لأنْ يهربوا لحياتهم دون حتى النظر إلى الخلف. (تك ١٩: ١٥، ١٦).

«نَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ!» (تك ١٩:٢٦)، كذكرى محفوظة **لحماقة تفضيل سدوم** على التَّحرُّر من **العالم الحاضر الشِّرير**. ربَّما كانت مشغولة بأبنائها، لكن كان هذا متأخرًا جدًّا، لماذا لم تُعِدّ أبناءها لمثل هذا الحَدَث؟ كانت لحظات عصيبة ومُرعِبة، والصِّراع فيها كان رهيبًا، تلك اللحظات التي لم يجد فيها لوط زوجته تسير بجانبه، فمن ناحية كان يريد أنْ يستدير ليعرف ما الذي أصابها، ومِنَ الناحية الأخرى كان يَعِي التحذير جيدًا «لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ»، فلم يستطع أنْ ينظر إليها حتى مجرَّد نظرة الوداع.

أخذ ابنتيه مِنْ **صوغر** إلى الجبال، وعاشوا في مغارة (تك ١٩: ٣٠). وحتّى هناك ظهر، في ابنتيه، **الطابع الرديء المُثير للاشمئزاز، لشرِّ سدوم**، فَسَقَيَاهُ الخمر حتى الثُّمالة، وكانت خاتمة حياته ختامًا مُخزيًا. خدعته ابنتاه بطريقة وضيعة في المغارة والسَّبب في ذلك أنَّه استسلم لهما في شُرب الخمر، حتى سَكِرَ، وكان ما كان (تك ١٩: ٣٣-٣٥). كانت شهادته لهما سلبيّة للغاية حتى إنَّهم لم يروا شيئًا مِنْ حَقِّ الله فيه، فتدنّوا إلى نفس مستوى الباقين مِنْ هذه المدينة الشَّريرة! استطاع لوط إخراج ابنتيه مِنْ **سدوم**، لكن لم يستطع إخراج **سدوم** منهما. ومن علاقتهما الشّاذة مع أبيهما جاء **«موآب»** و**«عمّون»**، شعبان مرَّرا حياة شعب الله لسنين طويلة (تك ١٩: ٣٠-٣٨).

خرج مِنْ **سدوم** بدون امرأته، وبدون ممتلكاته، وبدون نفس واحدة ربحها للرَّبّ، وبدون شهادة إلهيَّة عنه. غاب اسمه من سحابة الشهود، فلا يشير الكتاب إلى موته، لأنَّهُ في الحقيقة كان قد مات منذ زمن بعيد، وانتهت شهادته يوم ذهب إلى **سدوم**، وربط نفسه بهذه المدينة التي ليس لها أساسات، فصانعها وبارئها **الإنسان الخاطئ**. وانتهت أيَّامه ويا لها من نهاية أليمة لرجلٍ بارٍّ!! فالمؤمن هو الذي يُقرِّر كيف يعيش إمَّا حياة **المذبح** أو حياة **المذبحة**. فإذ وجد ضالَّته المنشودة في عرْض إبراهيم (أبرآم)، نقل على الفور خيامه إلى **سدوم** غير عالم أنَّ قصته المأساويَّة ستُسطَّر على صفحات الكتاب، كعِبرة لمَن يختار لنفسه، ويُسرع وراء آخَر. وأسدل الرُّوح القُدُس ستارًا على سيرته، مُنهيًا إياها من **السِّجِّل المُقدَّس** قبل أنْ تنتهي فعليًّا. إنَّ سيرة لوط كُتبت لإنذارنا،

فدعونا نتحذَّر حتى لا يكون أحدنا مؤمنًا مغلوبًا. فالكتاب يُقدِّم لنا في «لوط البارّ» تحذيرًا لنا كمؤمنين، مِنْ خطورة حياة ليست بحسب مشيئة الله. وأخيرًا صار إبراهيم «أَبًا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ» (رو ٤: ١١) بينما لوط (٣) – بكل أسف – عِلّة وجود **الموآبيين والعمونيين** أعداء شعب الرَّبّ.

«لاَ تُشَاكِلُوا هذَا الدَّهْرَ» (رو ١٢: ١)

كلمة «يُشاكل (سيزخيماتيزو) συσχηματίζω» تعني مُطابقة أو مُشابهة (٤)، أما كلمة «الدَّهْر» فالمقصود بها هنا «**العالم**» النظام الذي أسّسه ويرأسه **الشيطان** ليحتفظ بالإنسان بعيدًا عن الله (انظر ٢ كو ٤: ٤). لكن قصد الآب في اختياره وتعيينه لنا أنْ نكون مُشابهين صورة ابنه (رو ٨: ٢٩) لا مُشابهين هذا **العالم** في مبادئه. فهل يستسيغ عقلٌ أنَّ سفيرًا لدولة عُظمى راقية ومتحضرة، يرتضي أنْ يُشابه أهل البلاد التي هو مُوفَد إليها، وتلك الأخيرة ما هي إلَّا بلاد متخلِّفة وفقيرة، يعُمّها الجهل وتسودها عادات بدائيَّة؟ إنَّ هذا التشبيه البسيط لهو أقل جدًّا مِنَ الواقع. فنحن نسعى كسفراء عن المسيح، ومُرسلون إلى العالم مِنْ قِبَل المسيح «كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا» (يو ٢٠: ٢١). فمُحال أنْ يَقبل عقلٌ أنَّ أشخاصًا سماويِّين «لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ» (يو ١٧: ١٤، ١٦) يعيشون على الأرض **يحذون حذو سُكانها!!**

لقد شاكل لوط في يومه **هذا الدهر**، فخسر شهادته وخسر مكافأة الأمانة، خسر عائلته وخسر كرامته، خسر أفراحه وخسر كُلّ ممتلكاته، خسر زوجته وخسر شرفه. بالإجمال: خسر كُلّ شيء ما عدا نفسه، لا لشيء إلّا لأنه كان بارًّا، ولكن بكل أسف «مُعذَّبًا»!! (٢بط٢: ٧، ٨) فَخَلُصَ ولكن **كما بنار**. بينما يقف **أبو المؤمنين إبراهيم**، الذي عرف أنَّهُ ليس إلَّا غريبًا ونزيلًا، فلم يطبعه العالم بطابعه، بل ترك هو تأثيره على العالم المُحيط به كرئيس من الله بينهم (تك ٢٣: ٦). وما أبعد المُباينة!

«فِي تَقْدِيسِ الرُّوحِ لِلطَّاعَةِ» (١بط١: ١–٢)

الآب اختارنا حسب علمه السَّابق وخصّصنا له بروحه لإطاعة الرَّبّ يسوع، فكلمة «تقديس (آچيازموس) ἁγιασμός» تعني فصل الشيء وتخصيصه لعملٍ أو لأمرٍ ما. فالرُّوح القُدُس يقوم بفصل النفس عن **هذا العالم**، ويجفف ينابيع تعلُّقها بخداعه الزَّائف وبخواء كُلّ ما تحت الشمس، وأنَّ سعادة الإنسان هي في شخص الرَّبّ ومِنْ ثمّ يربطها بالمسيح، وهذا ما يُسمَّى بـ «تَقْدِيس الرُّوح»(٥)، فالإنسان فيما سبق كان جزءًا مِنْ هذا العالم المُعادي لله، وكأنّ رُوح الله اقتطعها مِنْ محجر العالم، لتكون حجرًا حيًّا في هيكل الله: «مَبْنِيِّين كَحِجَارَةٍ حَيَّةٍ» (١بط ٢: ٥)، و«مَبْنِيُّون مَعًا، مَسْكَنًا للهِ فِي الرُّوحِ» (أف٢: ١٢). هكذا كُنَّا حجارة في محجر هذا العالم وجاهد الرُّوح القُدُس معنا حتى فصلنا وسكن فينا فأصبحنا **حجارة حيَّة مقدسة**.

أخي، نحن نعيش في عالَم قاسٍ شرير، شِباكه كثيرة، وجاذبيته رهيبة، وخداعه بلا حدود، لديه مِنَ الأشياء ألوانٌ وأشكالٌ وأصنافٌ، وما مِنْ إنسان مؤمن أو خاطئ لديه حصانة في ذاته مِنْ خداعه، يعرف كيف يصطاد النفس البشريَّة الكريمة كما يصطاد الذئب الفريسة، فإذا ما طلب الإنسان الشُّهرة الفانية، قَدَّم له. وإذا ما أراد المجد الزَّائل أسرع به له. إذا ما اشتهى الغنى غير اليقيني، أكثر له منه. في عطائه خَدَّاع كبير، وفي قساوته مُدمِّر رهيب، الأخلاق الجميلة يُفسِد، والمشاعر النبيلة يُتلِف، والنفس الغالية يُهلِك. فإله هذا الدّهر ما أنْ تَتَيَسَّرُ لديه الفرصة ليجد بيتًا «مَكْنُوسًا مُزَيَّنًا» (لو١١: ٢٥)، فيكون مسرحًا لتمثيل شرّه كما كانت سدوم قديمًا.

---

(١) وكم من أمور تحدث في هذا العالم تظهر كأنها أمور طبيعية، بينما يكون القصد منها أحد المؤمنين، كما حدث مع يونان عندما نزل في السفينة ليهرب إلى ترشيش من وجه الرَّبّ، فأرسل الرَّبّ ريحًا شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر، فلما ألقوا قرعًا وقعت القرعة على يونان.

(٢) خدمة الملائكة لها هاتان الصفتان: تنفيذ قضاء الله (٢مل ١٩: ٣٥)، والثانية هي «أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ!» (عب ١: ١٤). ونرى هاتين الخدمتين في سدوم؛ فجاءا ليُهلكا المدينة، وليُخلِّصا لوط (١كو ٣: ١٥).

(٣) لوط معنى اسمه «غطاء» وربما يوحي بأنّ إيمانه غير مُعلن، أما أبرآم معناه أب عالٍ، وباسمه الجديد من الله إبراهيم: أب لجمهور كثير.

(٤) To form oneself after another, to be conformed to his example, conform to the same pattern التطابق مع نفس النمط أو المثال (Liddell-Scott).

(٥) ١بط١: ١–٢؛ ٢تس ٢: ١٣.

الذبيحة الإلهيَّة

«في يوم الرَّبِّ اجتمعوا لكسر الخبز والإفخارستيَّا بعد أن تكونوا قد اعترفتم بخطاياكم، لتكون ذبيحتكم طاهرة. وإذا ما كان لأحد خصام مع زميله فلا ينضم إلى اجتماعكم حتى يتصالح معه، لكي لا تتدنَّس ذبيحتكم. وهذه الذَّبيحة هي التي قال عنها السَّيِّد: لتقدم لي في كل مكان وزمان ذبيحة طاهرة لأني ملكٌ عظيمٌ، واسمي عجيبٌ في الأمم».

الديداخي (القرن الثاني)

تحوّل السفينة عن الغرق

فيما كانت إحدى السُّفن التِّجارِيَّة تبحِر محمَّلَة في بحر الشَّمال في طريقها إلى أحد مرافئ **هولندا**، واجهت فجأة بحرًا هائجًا. وقد بدا أنّها معرّضة للغرقِ بسبب الأمواج الهائلة في أي لحظة، وأنَّ طاقمها من البحارةِ اليونانيين كان يواجه آخر لحظات حياته. توقف دولاب القيادة والرَّادار عن العمل ولم يعد يوجد طريقة لمعرفة وُجْهَةُ السَّفينة. قبطان السفينة، وقد كان بحارًا متمرِّسًا، نادى طاقمه وسط زئير العاصفة، لا ليعطيهم أوامر لا حاجة لها، بل ليقول الحقيقة: «**إنَّنا نغرق! صلوا إلى الله من أجل خلاصنا!**»

ثم مضى إلى مزار الأيقونات على السَّفينة حيث كانت **أيقونة للقديس يوحنَّا الرُّوسي**. وبما أنَّهُ يدرك ما يحصل، ركع على ركبتيه وصلَّى: «يا قديسي يوحنَّا إنِّي لا أصلِّي من أجل أن تخلّصني أو تخلّص هذه السَّفينة الثمينة، ولكني أصلّي من أجل هؤلاء البحَّارة المساكين الذين يسافرون إلى أمكنة بعيدة ويأكلون خبز الغربة المعجون بماء البحر كي يساعدوا عائلاتهم التي قد تفقدهم في هذه الليلة. أيها القديس، أرجوك أن تخلّصهم!» ولم ينقطع القبطان عن التضرّع إلى **القديس** في قلبه طوال الليل، فيما كان البحر يهدر والرِّيح الشَّماليَّة الباردة تعصف.

وعند انقضاء الليل المروّع وطلوع الفجر تفاجأ البَحَّارة. ماذا رأوا؟ رأُوا سفينتهم راسية وبأمان في **مرفأ روتردام**. راحوا يتساءلون من هو «**القائد العظيم**» الذي قاد السفينة خلال العاصفة وجاء بهم الى هناك؟ إنَّهُ **القديس يوحنَّا الرُّوسي**.

ديمتريس فاروتسيكاس، الذي شاهد عبر السنين أشياء كثيرة في عرض البحار، كان يعرف ذلك القائد وما من أحد يستطيع أن يقنع القبطان بغير ذلك. وفي وسط انذهاله من العجيبة، اتّصل هاتفياً بشركة السُّفن ليخبرهم بأنه يصلح السفينة وأنه قادم إلى اليونان.

وعند عودته أراد أن يعبر عن «شكره» **للقديس يوحنا** بطريقته. أرسل زوجته إلى متجر الأدوات الكنسية، فاشترت: **بيتًا للقربان وكتابًا للأناجيل المقدسة وكأسًا للقربان ومراوح للقداس وصليبًا للبركة وقناديل زيت كلها مصنوعة من ذهب وفضة**، وأهداها **للقديس يوحنَّا الرُّوسي**. هذه الكنوز الثمينة الموضوعة الآن على المذبح المقدس تذكّر بعجيبة الإيمان والصلاة وبخلاص هؤلاء البحارة المكروبين والمضطربين.

«فَقَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيحَ، وَقَالَ لِلْبَحْرِ:«اسْكُتْ! اِبْكَمْ!». فَسَكَنَتِ الرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ.م» (مرقس٤: ٣٩).

توزّعُ هذه المجلة مجانًا

جمعية نور المسيح
المحرّر المسؤول:
هشام خشيبون - سكرتير جمعية نور المسيح
كفركنا – الشارع الرئيسي – ص . ب . ٦١٩
e-mail: light_christ@yahoo.com
http://lightchrist.org/bulletins.html
لدعم نشاطات الجمعية تُقبل التبرعات مشكورة
في بنك العمال فرع الناصرة ، حساب رقم:
12-726-111122